العلم الثقافي

المدير: عبد الله البقالي

سنة: 54

سنة التأسيس: 1969/2/7

الخميس 7 مارس 2024

الموافق 26 من شعبان 1445

10 ، شارع زنقة المرج حسان الرباط

Bach1969med@gmail.com

مُذكِّرات

لم أكد أضع الكلمة الأولى في افتتاحية هذا العدد ، حتى اسْتعدتُ يدي أشدَّ بياضا من الورقة البيضاء ، لا لشيء إلا لأنَّ خاطراً لسعني وأوحى لي أن أتركهم يأخذون حصَّتهم من كتابة الافتتاحية ، إنَّهم/ هن الرائدات والرواد الذين سبقونا إلى هذا الطريق بينما كنا لا نزال في أول الطريق ، رائدات ورواد الإعلام الثقافي الذين زادهم الاشتغال بالأدب وزنا يُقاس بميزان الذهب ، أولئك الذين أفنوا حياتهم في الكتابة ، لا يجب أن يكون الجزاء نظير ما أسْدوه للثقافة المغربية التشطيب والإلغاء ، بل الأجدر أن نسْتحضر بين حين وآخر ذكراهم ونُرسِّخها بقوة الفعل ،ليس فقط بالاقتصار على رفع الأكف بالضراعات والدعاء ، ولكن بإعادة نشر أعمالهم التي قد لا نجد اليوم ، مثيلا لأسلوب كتابتها البليغ وقوتها في إبداء الرأي ، عسى أنْ لا نُقلق راحتهم الأبدية ، ويقبلوا العودة للعيش بيننا للحظات بعد أن ذاقوا نعمة الخلود في دار البقاء !

محمد بشكار

bachkar_mohamed@yahoo.fr

الأدب اليوم

كتبها: عبد الرحيم مؤذن

أعتقد أن العالم اليوم- خاصة العالم العربي- هو في أمس الحاجة إلى الأدب أكثر من أي وقت مضى بالرغم من الملابسات المرعبة والمحبطة للممارسة الأدبية، والتي قد توحي بعبثية الأدب وعدم فعاليته، أو جدواه، ومن أهم هذه الملابسات ما أفرزته العولمة - وهي التحدي الأكبر للأدب- من مد جارف أتى على الأخضر واليابس، وعبدته الطرق السيارة، والشبكات العنكبوتية، ووسائل التواصل واللاتواصل أيضا التي اخترقت الدول والشعوب والأفراد والأسماء والكيانات المادية والرمزية، والتواريخ العامة والخاصة... وأجهزت على الجوانب الحميمية للإنسان، وأصبح الكائن الإنساني يعيش حصارا جهنميا في الكلام والعلاقات الحميمية، والوظائف الجسدية...

هذا هو رهان الأدب المتجدد. رهان تأصيل الهوية الإنسانية في زمن العولمة الذي ساوى بين الكائن الإنساني والعازل الطبي، بين القيم والتشييء اليومي...

وتقتضي هذه المفارقة المبكية والمضحكة، في آن واحد، مقاربة أدبية، أو مقاربات أدبية، تقوم على السخرية السوداء، والصراع الدرامي، والعمق التاريخي، ورسم الوضع الإنساني الدال...

في قصة لا أذكر عنوانها ولا أذكر كاتبها، علما أنها تنتسب إلى هذا الزمن، زمن العولمة، يماثل القاص بين كيس الأوراق النقدية وبين سلة بيض!! وفي قصة أخرى يعتقل مواطن بسيط بعد أن ضبط متلبسا بتحويل يافطة انتخابية إلى سروال داخلي!! وفي قصة لـ»يوسف إدريس» يتيه حمال عن صاحب كرسي منقوش بنقوش فرعونية عن صاحبه في محطة القطار. والدلالة واضحة، أي الإستبداد الذي يحمله الحمال على كاهله منذ عهود سحيقة.

المفارقة السابقة قد تكون مفارقة عربية بامتياز!! ذلك أن العولمة، عربيا، والتي تعكس أعلى مراحل التقدم المدمر، تعايش في الوقت ذاته أدنى مراحل التهميش الإنساني بحكم افتقاد المكان للحد الأدنى من الآدمية من ماء وكهرباء وتطبيب وتعليم ...

الأدب، في جوهره، بذرة لا تنمو في لمح البصر، بل إنها انعكاس لتفاعلات مرئية وغير مرئية تتحكم في مختلف الظواهر البارزة. وأهمية الأدب تكمن في اشتغاله على الموازي المختفي وراء الظاهرة، وعلى الصامت المغطى بالصاخب ... فوراء كل ذلك توجد عوالم مختلفة، وحيوات غنية، ومواقف إنسانية للفرد والجماعة...

ومن ثم يظل الأدب حصنا للمقاومة الدائمة، وترتفع أسوار المواجهة بأدوات الأدب الرمزية التي قد لا تشكل شيئا أمام الزحف العولمي المتصاعد، ولكنه في الوقت ذاته يمنح إمكانية انتزاع فضاء للحرية ولو كان في حجم حبة عدس!!

سيستمر الأدب ما دام الإنسان موجودا، ولن يغيب عن هذا الوجود إلا في حالة واحدة، هي التي يتعايش فيها - مع الإعتذار للطيب صالح- التمساح مع السمكة، والذئب مع الحمل، والبارد مع النار، والأفعى مع الإنسان... استحالة ذلك هو ما نقصده بالأدب، بضرورة الأدب الآن وغدا.

مع هذا العدد ملف حول رائد الكاريكاتير المغربي الفنان العربي الصبان ، بمشاركة :

بوشعيب الضبار ، مصطفى أجماع ، بنيونس عميروش ، عبد الرحيم الراوي ، شفيق الزكاري ، عبد الحق بن رحمون ، مبارك بوعلي ، بناجي الناجي ومحمد بلمو.

اللعب والكتابة المغايرة

عبد العزيز كوكاس

المعنى مدار صراع لا يعمر فيه الفوز طويلا.

عبد الفتاح كيليطو

يقع بشكل ما المنجز الإبداعي لأنيس الرافعي الموسوم بعنوان مبهر «سيرك الحيوانات المتوهمة» وبعنوان فرعي: «حقيبة رسومات ومونولوجات «أنجز شقها الفني المبدع الأردني محمد العامري، ضمن الكتابة بيدين، حيث يتآخى الرسم والكلمة، اللغة والصورة في متن إبداعي يعيدنا إلى المنمنمات القديمة كما يزخر بها التراث الإبداعي الإسلامي وخاصة الفارسي منه.

نحن أمام عنوان عجيب وتجنيس غريب وافتتاح أغرب على غير سابق في مجال جنس القصة الذي عرف به أنيس الرافعي، الذي يعتبر بحق انحرافا جميلا في مجال جمالية السيرورة القصصية العربية.. 120 من التقديمات على شكل شذرات وتأمّلات وخواطر وقصيْصات وأحلام وهوامش، وخطابات موازية قبل أن نلج سيرك النصوص الحكائية غير المؤشر عليها سوى بأنها سرد، تُعطي الحق للحيوانات في التحدث بلسانها، يحملنا الرافعي في سفينة حيواناته، سيركه المتنقل، لينقذنا من طوفان الروتين والانسحاق تحت عجلة اليومي إلى عالم فانتازي، سيرك كرنفالي عجيب وغريب بشخوصه وبوقائع سرده وبمسارات الحكي داخله، وعلينا أن نختار أن نكون إحدى حيواناته، أو من جمهور السيرك فقط، نمارس اللعب وفق القواعد التي حددها الكاتب في مفتتح هذا النص المغاير، ثيمة وأسلوبا وإخراجا.

يجب أن ننتبه إلى المفهوم الذي قدمه الرافعي لمشروعه: «المشتل القصصي»، يتعلق الأمر بكتابة المحو، الهدم والبناء، لا معمار قار في العالم القصصي للرافعي، لأننا أمام متخيل حي، متعدي، متجاوز، ينفي ذاته باستمرار، إنها صيغة كتابة المختبر، حيث التجريب يعني الكشف، الحركة في الزمان والفكر والكتابة، وهنا جمالية المشروع القصصي للرافعي، كتابة تنفي ذاتها في كل تجربة قصصية، أسلوبا وثيمة وتخيلا، وهنا نعثر على معمار بنائي وجمالي له فرادته ووسمه الخاص، فأنيس الرافعي هو جميع حيواناته كما يقول في إحدى الشذرات في خطاب الافتتاح، أي في إحدى التذاكر المجانية للدخول إلى السيرك.

نحن أمام سيرك تقلب فيه الأدوار، تمسخ الكائنات العارضات، بهبوط إنسان السيرك إلى درك الحيواني، وتطور في سلم الارتقاء للحيواني نحو الإنساني، وهناك جمهور بينهما، وأنيس الرافعي يُصعّد الرغبات ويعمل على تسامي النوازع، يقول الكاتب: «ينهض مفهوم "السيرك الحيواني" في هذه الحقيبة على معارضة مفهوم "السيرك البشري" بمعناه الروماني القديم، القائم على إذكاء حطب العنف الحيواني لدى الكائن البشري. نحن نقلب الصورة تماما، فنسعر لهيب النزعة الإنسانية لدى المخلوق الحيواني... الحيوان هو الجزء غير المخلوق من الإنسان» (ص:14-15)، حيوانات تتعرض للمسخ في تطور غرائبي، وتمسخ الأجناس أيضا وتهجنها بالتعبير الباختيني، جنس خلاسي، لا جنس نقي أو دم طاهر، فالكتابة السردية هنا زاخرة تنفتح على روافد أجناس متعددة..

ثلاثون نصا عصيا عن التجنيس يحلي سرد الكتاب، في هذا السيرك العجائبي الذي ينتهي به الأمر إلى تحوله لرماد بعد نشوب النيران، فسيرك اللعب مثل الحرب لن تربحها بمجرد إعلان بدئها ولكن حين تحسن ختمها، نهاية هذا السيرك الكرنفالي، تذكرني بالمشهد الأخير للفيلم الشهير ماء الفيلة، the water éléphants، حين اشتعلت النيران في لحظة أكبر عرض تم الرهان عليه في سيرك عجيب، كأن الرافعي، هذا الوفي لعشقه للقصة القصيرة، يريد أن يتخلص من هذا السيرك، ويحرم حيواناته المتوهمة من عيش الحياة الحقيقية لتبقى معتقلة في نص متوهج. ترتب فيه مونولوجات الحيوانات حسب ترتيب دخولها إلى خيمة سيرك قوامه 30 حكاية عن 30 حيوانا غرائبيا. في كل مونولوج نجد العنوان العربي والعنوان الأجنبي المكتوب بالله العربية فرينكودون تيبوس هو نوع من القرش الحوت، داكن اللون، مع وجود بقع وأشرطة بيضاء بارزة، نفس الأمر مع مونولوج البالشون، ومونولوج النمر بانثيرا براديس الذي يشير إلى النمر الأسيوي، ومونولوج الكركدن المؤشر عليه برينوسيرو التي تعني الكركدن، وتياداي التي تحيل لنوع من الشاي مشهور، ومونولوج التمساح، كروكوجيلوس بوروسيس الذي يعني نوعا من التماسيح مشهور بتمساح المياه المالحة، ومونولوج الفيل إيلفاس ماكسيموس الذي يشير إلى الفيل الأسيوي...

موضوعة «السيرك الخيالي»، التي تأخذ في هذا الكتاب/ «البرفورمونس» شكل استعارة كبرى للحياة والوجود والواقع وما بعد الواقع وما وراء النص. حيث ثمّة سارد يختلق الحيوان، وفنّان يروّضه بالألوان. حيث ثمّة تشاكل مباطن وتفاعل متخارج بين الأيقونة والأدب، ليس في حاجة البتّة إلى مرجع إحالي غير ذاته، شأن محارة صدفيّة ملمومة على نفسها وعزلتها فوق صخرة، في حلّ من صخب الشاطئ أو هدير الموج. أيّها القارئ، رجاء ادخل إلى السيرك بثقة، فلن يلتهمك أي أحد».

نحن أمام كتابة تثور على نفسها، وتأكل قارئها العادي أو الكسول رغم أنها تتكرم عليه بمنحه تذاكر مجانية لولوج السيرك ويطبطب عليه ساردها، راعي سيرك الحيوانات المتوهمة للاطمئنان من خوض المغامرة، كتابة لا يسلم من جرأتها قارئ ولا سارد ولا ناقد ولا متلقي، نسير بحذر في هذا السيرك، ترعبنا الرسومات الماكرة، نحس بالخطر، خوفا من اكتشاف الحيواني فينا.. تبتلعنا كتابة تثور على الحدود بين الأجناس، كتابة تلعب، بالمعنى الذي منحه هيزينغا للعب، من خلال حديثه عن «الإنسان اللاعب»Homo ludens «، حيث حدد مفهومه قائلا: «اللعب عمل أو نشاط إرادي، مُنْجَزٌ في حدود معينة في الزمان والمكان، وتبعا لقاعدة متفقٌ عليها بحرية لكنها مُلْزِمَةً تماماً، من أجل غاية بحدّ ذاتها، مُرفقة بشعور وتوتّر وبفرَح، وبوعيٍ بوجود مغاير للحياة المألوفة، وأكد أنه في اللعب تحضر الحرية والإبداع»، أستحضر كتاب ميشال بيكار «القراءة كلعب»، وأقول إن نص الرافعي، هو لعب في الكتابة يفرض لعبا في القراءة أيضا؟ لا يكون البشر مبدعين أكثر ممّا هم في اختراع اللعب؛ ففيه يكون الفكر في أريحيّة يقول باسكال في رسالة إلى ريمون دي مونتمور مؤرخة في 17 يناير 1716.

في «سيرك الحيوانات المتوهمة.. حقيبة رسومات ومونولوجات» لأنيس الرافعي

كتابة أنيس الرافعي في «سيرك الحيوانات المتوهمة» موسومة بالتجاوز، يجاوز فيها الكاتب ذاته بالتجريب الدائب حتى وهو منخرط في مشروع قصصي لا يشبه سوى ذاته، لذلك لا نعثر في كل مونولوجات الكركدن والكنغر والتمساح والدبّ والقندس والسحلية وطائر البلشون وآكل النمل والحمار الوحشي والنمر، وغيرها لا وجود للتماثل، أغلبية حيوانات السيرك لا تحبّ المرايا. ليس فقط لأنها ضد تماثل الزمن ولكن لغنها حكيا وكتابة ورسما أيقونيا لا تريد أن تشبه نفسها.

على غرار تفسير نيتشه لميلاد التراجيديا، في خضم ذلك الصراع القوي بين الأبولونية وقوانينها الصارمة في الضبط والترويض والعقلنة، وبين الديونوزيسية التي رغبت في تحرر الأفراد والجماعات لمداعبة الحلم والنشوة، نعثر على صراع قوي في محكيات أنيس الرافعي، بين الحياة الإيروس والموت التاناتوس، وإذا ما استعرت من عالم النفس إريك فروم تفسيره لمظاهر الصراع الإنساني بين النيكروفيلية التي تعبر عن النزعة التدميرية عند الإنسان، أي التدمير من أجل التدمير؛ والبيوفيلية، التي تعني حب كل ما هو حي، واحترام ودعم حياة البشر، وعدم جواز المس بكرامة الإنسان. يمكن القول إننا أمام حيوانات تحكي صراعها في الوجود، كل حيوان له قصة، قلبها هو هذا الصراع بين الحيواني والإنساني، بين البناء والتدمير، الحياة والموت، المتعة والكبت، الحقيقة والوهم وأشباهه..

كل النصوص في هذا الكتاب السردي هي استعارات كبرى، في كل نص هناك بوح، كل حيوان يصف ذاته ويحكي تجربته، بلغة منحوتة، فيها الكثير من الغوص البهي في أدق التفاصيل، تذكرني غواية ولع أنيس الرافعي في استقصائه لتجربة كل حيوان من أبطال سيركه المتوهم، بإبداعات سليم بركات وبحذاقة صاحبي المقامات الهمداني والحريري، إنه نص مدهش حقا، نجد أنفسنا ونحن الذين كانت تسكنهم الدهشة والرهبة في ولوج عوالمه، ونحن ننتهي من قراءة الكتاب مشتهين لو استمر هذا السيرك حتى بكل فزعه وحيواناته المت ;همة، إن المبدع أنيس الرافعي الذي طرد السحرة من السيرك، كما طرد أفلاطون الشعراء من جمهوريته الفاضلة، هو نفسه ساحر يخبئ لنا الكركدن في قبعة، يُخرج فيلا من قلب جرذ، وتمساحا من قلب لوحة تشكيلية يفترس صاحبة البيت الفتاة الشقراء... أهم ما يميز نص الرافعي إضافة إلى ثرائه اللغوي، هو الخلفية الثقافية والمعرفية العميقة التي تنهل من مصادر باذخة، من القديم والحديث من الشرقي بمعناه الواسع والغربي، في مختلف صنوف الآداب والعلوم والفنون، حيث نجد أنفسنا أمام «حلبة دائرية لعروض الأجناس والأنواع الأدبية النطاطة»، في قاموس اللغة يشير النطاط إلى المهذار الكثيرُ الكلام والهَذر، وفي جنس (الحيوان) هي خنافس من فصيلة النطّاطات، إذا وُضعت على ظهرها نطت كالنابض، تذكرني ببطل كافكا غريغور سامسا في المسخ او الانمَساخ.

كان الإنسان في الحضارات القديمة يصور الحيوانات المفترسة والضخمة خاصة بغية إبراز قدرته على التحكم فيها، أو القضاء على خوفه الرهيب منها، يثبتها في جدران كهفه، بهيبة ليتحكم فيها، فما وظيفة رسوم العامري في هذا الكتاب، غير الوظيفة التزيينية، نزع الخوف أم خلق الرهبة؟

يمنح الرسم حوضا جديدا للحياة للكلمة وتمنح الكلمة للرسم ديمومة ولسانا، هذه رسوم لا تحيى إلا في اللغة، إنها ليست نصا موازيا، تتجاور الأيقونة والكلمة كما في التمائم السحرية وكتابة المعابد القديمة، حتى لا نعي أحيانا بسبب تضامهما الجميل، من الأسبق في الوجود، هل في البدء كانت الكلمة أم كانت الصورة والرسم؟

نور

زهور بن السيد

هربت من حديث أمي وأبي عن المدرسة إلى مرسمي.. ولكنني لم أستطع أن أهرب من كل هذا الضجيج في رأسي.. الخطوط لا تستقيم على اللوحة كما أردت لها، والألوان تتراقص أمام عيني، والفرشاة ترتجف في يدي..

خوف، ارتباك، فضول وقليل من الفرح يكاد يذوب وسط كل هذه الظنون، والهواجس التي تحاصرني هذا المساء.. غدا سأذهب إلى المدرسة العمومية.. يقولون سينتهي الميز والعزل والإقصاء الذي تعرضنا له من قبل..

في الصباح الباكر، اقتحمت أمي غرفتي، واتجهت نحو النافذة تفتحها بحماس مصطنع، وأيقظتني وهي على يقين أنه لم يغمض لي جفن طيلة هذه الليلة.. لم ألتفت إليها، ظلت عيناي مشدودتان إلى السقف.. ثم قمت بتثاقل، وخرجت من غرفتي لا أعرف إلى أين أتجه.. داهمتني الظنون والهواجس من جديد..

ونظرتُ إلى وجه أمي لأستمد منه بعض الارتياح والعزيمة لمواجهة هذا الظرف العصيب، وإذا بي لا أرى إلا قسمات قلقة وغامضة.. عندما انتبهتْ سارعت إلى احتضاني بقوة، وقالت:

لا تخافي.. سيكون كل شيء جيدا

خائفة جدا.. كل المواقف السيئة تتسمر أمامي الآن، الماضي منها والذي قد يحدث...

الأمر مختلف في الثانوية، فالتلاميذ ناضجون، والإدارة حازمة، والأساتذة لن يسمحوا بإزعاجك.

آمل ذلك يا أمي..

هيا نكمل الاستعداد.

ولم تستطع أمي أن تخفي عني توترها، لقد كانت تشد شعري بقوة عندما كانت تضع لي ضفيرة، نتيجة ما يحدث في قلبها من انقباض لما تتوقع هي الأخرى أن أتعرض له من مواقف محرجة في المدرسة اليوم، وربما طيلة السنة، قد تزيد حالتي سوءا وتنفرني من الدراسة، وعندما تنتبه لصنيعها تعتذر مني... ما أكثر المواقف المحرجة التي تعرضت لها في المدرسة، في الإعدادية عندما يطلب مني أستاذ مادة اللغة العربية أن أقرأ فقرة من نص طويل في دوري، تتسارع نبضات قلبي وتعلو، ولساني يدور في فمي دورات عديدة دون أن يخرج صوتي.. فتلهب نظرات زملائي التلاميذ وجهي، وتعلو ضحكاتهم، ويكثر الضجيج...

أصبح أبي جاهزا، وقام يستعجلنا أنا وأمي وهو يحرك مفاتيح السيارة في يده بسرعة، يسير ويجيء في البيت دون توقف، الشيء الذي خلق لي دوارا في رأسي وزاد من ارتباكي وأعاد حدة الضجيج إلى رأسي.

نور... هيا

نظرتُ إليه.. ولم أجبه وهرعت إلى أمي أدس رأسي في حضنها...

أكره اسمي.. أكرهه.. يرعبني أن أسمعه، كانت المعلمة في المدرسة الابتدائية لا تنطق اسمي إلا لتوبخني وتأمرني بصوت عال بالكف عما أقوم به.. فكلما نطق أحد اسمي تهتز مشاعري، ولا أشعر إلا وأنا واضعة أصابعي في آذاني حتى لا أسمعه.

ركبنا السيارة.. وساد الصمت.. لا أعرف ماذا يجول بخاطري أمي وأبي، أما أنا فقد توقف ذهني عن التفكير ولم يعد بإمكاني تخيل أي شيء.. أنظر من النافذة محاولة أن أخترق المجهول.. في الطريق رأيت زمرا من التلاميذ في مثل سني يضحكون ويتسابقون، ولكن لم أتبين الوجوه ولا باقي التفاصيل.. وتساءلت: هل منهم من هو خائف مثلي؟ أم أنني الوحيدة في كل شيء...؟

ونحن نقترب من الثانوية، قفز السؤال الكبير إلى ذهني: كيف يمكنني أن أقتحم باب المؤسسة وسط هذه الجموع من التلاميذ والأمهات والآباء والأصوات العالية ؟

أمي التي تقرأ أسئلتي في سرها، التفتت إلي تتأملني بحنان زائد، وتؤكد لي بحركة عينيها المعهودة أن كل الأمور ستكون أحسن مما توقعنا.

أدرك أننا كلنا لا نتشابه.. ولكن لماذا يزعجهم اختلافي؟... مكتظة بأسئلة كثيرة.. ولا أجد لها أجوبة.

نزلت أنا وأمي وبقي أبي في انتظارنا في السيارة.. شعرت وأنا أطأ مدخل الثانوية أن الأرض تبتلع قدميَّ، أجرها باستماتة المحارب، دون أن يظهر ذلك على هيئتي الخارجية، فملامح وجهي ثابتة، والضفيرة مازالت مستقيمة وسط ظهري، وشكلي أنيق، وعيناي مركزتان على الفراغ.. لا أرى أحدا.. وخيل إلي أن كل التلاميذ يحملقون بي ويتهامسون: (إنها معاقة.. ستدرس معنا متوحدة ـ هههه)، والأساتذة يحتجون على كثير من الغموض الذي يحيط بدمج حالاتنا في المدرسة العمومية.

في وقت الاستراحة يكاد رأسي ينفجر من كثرة الصراخ والكلام العالي المتداخل بعضه ببعض، الكل يتكلم ولا أحد يستمع للآخر، كأننا في سوق شعبية تختلط فيها أصوات الباعة والمتبضعين.

يقودني هذا الضجيج إلى التفكير والتأمل في النور والظلام والخلق والعدم والمصير.. وأسئلتي الشائكة التي تثير غضب المحيطين بي.

شعرت بارتياح كبير عندما علمنا أنا وأمي بأن هذه الأيام مخصصة للتسجيل وإعادة التسجيل، أما الدراسة فمؤجلة لبضعة أيام.

كان التحدي أكبر من جبل، ولكن أعتقد أنني نجحت في كسبه. مضت الآن ثلاثة أشهر، اجتزت الامتحانات التكيفية في كل المواد بتفوق، وحصلت على معدل مستحسن في الدورة الأولى..

وفي الوقت الذي بدأت أجني فيه ثمار كفاحي داخل المدرسة، فاجأتنا الطبيبة المتتبعة لحالتي التوحدية بقرار غريب، رأت ما لم نره أنا ووالداي، وأمرت، وبشكل استعجالي، أن أتوقف عن الذهاب إلى المدرسة لمدة خمسة عشر يوما قابلة للتجديد. حزنت كثيرا.. وكلما انتهت مدة الشهادة الطبية إلا وقامت بتجديدها، وبدل خمسة عشر يوما أصبحت ثلاثين يوما.. حتى تعودت على المكوث في البيت، وكرهت العودة إلى مقعدي في الفصل الدراسي.. ولم يعد بمقدوري اقتحام باب الثانوية من جديد.

تركت كل شيء، ورجعت إلى لوحتي أرسم الضجيج والنور المشع بداخلي...

من أعمال الرسامة البريطانية إيمي جود

منتصف الطريق

عبد القادر العلمي

أيُّها الوَاقِفُونَ
في مُنْتَصَفِ الطّريق
هل تَذْكُرُونَ
قَصيدة حُبٍّ أخْضَر
أزْهَرَ ضَوْءُ حُرُوفِها
كالوَرْدِ المُتَفَتِّح
في غَوْرِ أحْلامِنَا
واشْتَعَلَتْ كَلِماتُها
كالشَّمْسِ الضَّاحِكَة
في أذْهَانِنَا
وأوْقَدَتْ لَوْنَ الصُّبْحِ
يَسْطَعُ وهَّاجًا
في دَيَاجِي جَوَارِحِنا
بريقه كاللُّؤْلُؤِ والجَوْهَرْ
يَنْشُرُ البَهجة
في ثَنَايَا أرْوَاحِنَا
فَانْطَلَقْنَا
في صَحْرَاءِ الزَّمَنِ الدَّاكِنْ
نُقَاوِمُ سُدُولَ الظَّلام
ويَبَابَ الوَقْت
لا نَكِلُّ
لا نَسْأَم
وقبل أن تَغْمُرَنَا
بَسْمَةُ الفَجْرِ المَنْشُودَة
في ظِلَالِ حُلْمِنَا الأكْبَرْ
ارْتَبَكَتْ أقْدَامٌ
تَعَطَّلَ سيْرُهَا
وضَاعَت أعْيُنٌ
بين فُقَاعَاتِ خَوَاء
بَرِيقُهَا يُسْكِرْ

***

أيها الواقفون
في منتصف الطريق
من أَرْبَكَ الأقْدَام
فَوْقَ صِراطِ
حُلْمِنَا الأحْوَرْ
من أوْقَفَ سيرها
في نَفَقِ الزَّمَنِ الأغْبَرْ
من جَمَّلَ الخَرَابَ
في أعْيُنٍ
تَرَى ولا تُبْصِرْ
من رَسَمَ الرَّمَادَ
بِلَوْنٍ أخْضَرْ
من جَعَلَ حِمَمَ الغَضَبِ
الصَّاخِبِ في الأعْمَاقِ
بَرْدًا وسَلامًا
في مسالك الجمر
من قَالَ أنَّ الدِّفْلَى
تُثْمِرُ سُكَّرْ

***

الحُلْمُ يَبْقَى مُشْرِقًا
في الأفُقِ
مَمْدُودَ اليَدِ
لِمَنْ يمْشِي قُدُمًا
دُونَ التفَاتِ
لِكُلِّ مَنْ ولَّى وأدْبَرْ.

من أعمال الفنان فوتوغرافي والمخرج سينمائى المغربي أشرف بزناني

ملف

حين يحضر الفنان إلى جنْب أو قلب الإنسان في شهادات حول رائد الكاريكاتير المغربي العربي الصبان

في احتفالية كبرى بمشرع بلقصيري

المدينة ساكنة هادئة، مشاءة كالفلاسفة. نوافذها مشرعة حبا وإخاء، يحرسها سيدي الدرويش من خلال الضفة اليمنى لنهر سبو العظيم.

إنها مشرع بلقصيرى، كما كان يحلو أن يسميها ابنها البار، ضابط خباياها وأسرارها التاريخية والجغرافية والاجتماعية؛ الباحث «بوسلهام الكط» الذي وافته المنية مؤخرا...

فعلى امتداد يومين متتاليين احتفت هذه المدينة بأيقونة الكاريكاتور المغربي المبدع «العربي الصبان».

هذا اللقاء الذي بصمت عليه جمعية النجم الأحمر للتربية والثقافة؛ دورة: العربي الصبان من خلال اللقاء الثاني للكاريكاتور المندرج تحت ملتقى ناجي العلي للكاريكاتور...

أنْ تحتفي بالعربي الصبان الرمز والدلالة، فذاك مدعاة لأكثر من شهادة واحتفاء... لذلك جاءت شهادات أهل هذه الدار في الاعتراف بما للرجل من إسهامات إبداعية فنية جمة، وما له من حميمية متجذرة مع كثير من أهل هذا الوطن وخارجه...

وقد افتتح اليوم الأول من هذا التكريم بمعرض الرسوم الكاريكاتورية التي سبق أن نشرت في كل من جرائد العلم والقدس العربي والاحداث المغربية، تلته قراءة الفاتحة ترحما على بعض الأساتذة الذين ينتمون للمدينة وعلى رأسهم الكاتب والباحث «بوسلهام الكط».

وبعد كلمة رئيس الجمعية الترحيبية بالضيوف، انطلق الحفل الذي جلسته الأستاذ جمال الفقير، بتقديم شهادات في حق المحتفى الكاريكاتيرست الأستاذ العربي الصبان، بمشاركة الأساتذة:

بوشعيب الضبار، الناجي بناجي، مبارك بوعلي، مصطفى أجماع، بنيونس عميروش، شفيق الزكاري، عبد الرحيم الراوي، عبد الحق بن رحمون ومحمد بلمو، ليختم الحفل بتقديم جوائز وتذكارات.

العربي الصبان.. الرائد في التطهير بفن الكاريكاتور

محمد بلمو

أتذكر جيدا أن مداومتي على قراءة الصحف، بدأت سنة 1981، عندما بدأ أستاذ الأدب العربي بثانوية زرهون، القاص والبيبلوغرافي السي محمد إدارغة، يطلعنا على عناوين الملاحق الثقافية لجرائد العلم والاتحاد الاشتراكي وبيان اليوم... كنت بالكاد وأنا تلميذ قروي أتدبر ثمن هذه الجرائد مرة في الأسبوع، للاطلاع على جديد الملاحق الثقافية، حيث كان هناك كشك يتيم للصحف بمدينة زرهون، والجرائد تصله متأخرة مما يصعب الحصول عليها إذا لم تكن زبونا مداوما... وكان هوسي يتجه مباشرة لتصفح الملحق الثقافي، بعد الحصول على الجريدة. من بعد ذلك أقوم بجولة حول باقي صفحات الجريدة... سرعان ما ترسخت عندي هذه العادة، وأنا تلميذ في الثانوي، فكلما حفل جيبي ببعض الدراهم أو عطف علي بائع الصحف الوحيد، (وكان ثمن الجريدة آنذاك درهما، ثم فيما بعد أصبح درهما ونصف.) اقتنيت جريدة واقتفيت آثار العناوين ولو كانت عناوينها خارج الموعد الأسبوعي الثقافي... ولشد ما أثارت انتباهي رسومات العربي الصبان حينئذ، إذ غدت الصفحة الأخيرة لجريدة العلم هي صفحة الافتتاح بالنسبة لي، لأنها كانت صفحة دسمة تشمل الثقافة والمنوعات، وأساسا كان يتصدرها يوميا إبداع العربي الصبان الكاريكاتوري...

من دهشتي كمتلقي انشددت أول وهلة لرسوماته، وأصبحت على استعجال كل يوم للاطلاع على جديده، ومعرفة كيفية تعامله الفني الساخر مع الإحداث الجارية، قبل أن أعود لباقي الصفحات...

وخلال مرحلة الدراسات الجامعية ترسخت عندي هذه العادة القرائية أكثر، وهذا العشق لإبداع العربي الصبان وسخريته اليومية. لكن التحاقي بمهنة الصحافة بالعاصمة الرباط أتاح لي التعرف عن قرب على شخصية العربي الصبان وتجربته الإبداعية الرائدة من خلال العديد من اللقاءات التي جمعتنا مع ثلة من الزملاء. وتوجت بانخراطي معه في تجربة: جريدة «المقلاع» الساخرة التي أطلقها سنة 2000، لأمارس حظي في الكتابة الساخرة والمتحررة من قواعد الكتابة الصحفية المنمطة...

ومما يؤسف له شديدا لم يصدر منها سوى 11عددا قبل أن تتوقف. وعلى رغم قصر عمرها، شكلت هذه الجريدة التي أسسها فناننا المحتفى به تجربة مرحة ومتميزة بمحورية سخريتها بالمقارنة مع باقي التجارب الصحفية التي خُضْتُ غمارها.

لقد كان ما يقدمه من رسومات يومية يُخْتزل في مربع صغير ما تحتاج المقالات لبسطه الى صفحة أو صفحات، وهنا تكمن قوة الإبداع الكاريكاتيري عند العربي الصبان. فمن عاش مهنة الصحافة من الداخل، يعرف أنه ليس من السهل أبدا أن يلتزم بكتابة مقال أو افتتاحية يقدمها للقراء كل صباح، فما بالك بالتزام الفنان العربي الصبان بتقديم رسم كاريكاتيري معبر وساخر، كل صباح لقراء الجريدة من وحي الإحداث الجارية، وفي تفاعل مبدع معها، إذا لم يكن مدججا بروحه النقدية وسخريته اللاذعة ومهمازه المتوثب.

كنت أفضل أن أتصفح رسومات الصبان التي تشتغل على مفارقات السياسة والثقافة والاقتصاد والاجتماع، وانا أضحك ساخرا، كما لو كان يجسد الحكمة الشعبية البليغة التي تقول: «كثرة الهم تا ضحك». بينما تصيبني قراءة مقال حول نفس الموضوع بالمزيد من الألم والحزن. وهنا تكمن قوة فن الكاريكاتير، وقوة تجربة العربي الصبان على الخصوص، بما يعني أن وظائف هذا الفن لا تقتصر على النقد والسخرية من ظواهر ومظاهر المجتمع السلبية ومفارقاته الصارخة، بل له وظيفة تطهيرية فعالة. فالقارئ كلما أقبل على رسومات العربي الصبان، تمكن من تطوير وعيه بواقع مجتمعه، في نفس الآن الذي يتطهر فيه من أدرانه وعيوبه ومفارقاته.

بهذا المعنى، وعلى سبيل الختم دلاليا، ترد كلمة «الصبان» في المعاجم العربية بـ : «صانع الصابون»، والاشتقاق من فعل صبَّنَ يُصبِّن، تَصْبينًا، فهو مُصَبِّن، والمفعول مُصَبَّن، وصبَّنَ الملابسَ وَنحوَها: غسلها بالصابون صبَّنَ الزَّيوتَ/ صبَّنَ الدُّهونَ: حوَّلها إلى صابون. فالرسوم الكاريكاتورية التي يصنعها الفنان العربيً الصبان بمثابة الصَّابون الذي يحاول به ومن خلاله تنظيف المجتمع من أوساخه وعيوبه، هكذا يمكن القول: أنه «صَبَّنَ» الحكومة والبرلمان والأحزاب والإسلام السياسي والنقابات والمثقفين ورجال الأعمال والاقتصاد، وأينما بدت له الأوساخ تلوح، أشهر ريشته ورسومه وطاردها في كل مكان.

لذلك، فان قوة تجربة فناننا المحتفى به تكمن في هذه الوحدة والتناغم والتكامل بين اسمه وتجربته الإبداعية، بما يمكن أن نطلق عليه ما درجنا على تسميته؛ «إسم على مسمى»،

ويا له من اسم على مسمى، فقد تحول «الصبان» من اسم عائلي محايد، إلى فعل تعبيري تطهيري عبر رسوم كاريكاتورية ساخرة طبعت تجربة وحياة العربي الصبان، وكذلك كان.

حدود الحرية في التعبير الكاريكاتوري

العربي الصبان نموذجا

شفيق الزكاري / تشكيلي وناقد

إن أهمية الكاريكاتير، تكمن أولا في الطريقة التقنية للاشتغال كشرط أساسي، ثم لنوعية الحمولة والمرجعية الثقافية والسياسية للفنان الكاريكاتوري، مع متابعاته لكل التحولات في مجتمعه، كمؤرخ وإعلامي بصري، يطرح قضايا مصحوبة بأسئلة جوهرية دون البحث عن الحلول، في قالب هزلي ربما قد يميل في أغلب الأحيان إلى «الضحك الأسود humour noir».

ومن خصوصياته كذلك، هو قدرة وموهبة الفنان على امتلاكه ناصية اختراق وجدان المتلقي بكل الأشكال الفنية والموضوعية الممكنة بلغة كونية لسانها هو الصورة، كما هو الحال عليه في تجربة الفنان الفرنسي أونوري دوميي Honoré Daumier، الذي عاش ما بين 1808 و1879، وأنجز أعمالا كبيرة بتقنية الطباعة الحجرية تصب كلها في الأوضاع السياسية للمجتمع الفرنسي وخاصة قطاع القضاء، فلم يتوقف عن رسم تعبيرات وجوههم وضخامة بطونهم وكبر أنوفهم، فانتقل من الرسم بنفس الطريقة إلى النحت، وهذا ما أعطى بعدا ثالثا لتجربته الفنية كتشكيلي وكاريكاتوري في نفس الوقت، غير أن وضعية الفنان الكاريكاتوري كانت تختلف عن ما يجري في هذا الحقل بالدول العربية ومن بينها المغرب، نظرا لاختلاف الرؤية التي يتحكم فيها الوازع الديني والسياسي.

ففي مقالة تحت عنوان: الكاريكاتير المغربي بين الحظر والمرارة اللذيذة !

كتب الكاتب والإعلامي عبد الرحيم التوراني على موقع الحرة الإلكتروني ما يلي: «في عهد الحماية الفرنسية كانت الصحف الوطنية تتعمد كتابة عبارة «حذفته الرقابة» وسط مساحات بيضاء كان من المقرر أنها الحيز المخصص لمقالات منعها الرقيب. وبالأسلوب ذاته في الثمانينيات احتج الأديبان عبد الكريم غلاب وعبد الجبار السحيمي (مدير نشر ورئيس تحرير جريدة «العلم»)، حين كان مكان رسم العربي الصبان يصدر فارغا بأعلى الصفحة الأخيرة من الجريدة».

هذه الإشارة التي أكد عليها عبد الرحيم التوراني، تبين جليا وضعية هذا الجنس التعبيري، في بداياته الأولى، لما كان له من تأثير وحضور فعلي في التطورات التي عرفها المغرب منذ بداية الاستقلال، كوسيلة تحسيسية لها دورها ومفعولها النضالي ضد كل أنواع القمع والفساد، مما تسبب في إقصائه ومتابعة كل من كان يمتهن فن الكاريكاتير، وخير مثال لقوة وفاعلية الكاريكاتير على الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية بما أن هذه العناصر مرتبطة بهذه الأخيرة بشتى أنواعها، هي تجربة الفنان الراحل الفلسطيني ناجي العلي، الذي اغتالته أيادي الصهيونية بلندن بسبب رسوماته ونضالاته المستمرة ضد الاحتلال، ثم الفنان السوري علي فرزات، الذي اعتقل وعذب من طرف النظام السوري بسبب خلاف في الرأي حول تردي الأوضاع بسوريا.

ورجوعا إلى تاريخ الكاريكاتير بالمغرب، فإن أهم مرجع استطاع أن يقف على كل الإبداعات في هذا المجال تاريخيا وتحليليا هو للفنان التشكيلي والناقد إبراهيم الحيسن موسوم ب»الكاريكاتير في المغرب: السخرية على محك الممنوع»، حيث أشار الإعلامي والباحث بوشعيب الضبار، في مقطع من مقدمته ما يلي، «يتناول عبر فصوله الثلاثة موضوع السخرية والسخرية الأيقونية، والكاريكاتير المصطلح والسياق، وتجربة الكاريكاتير في المغرب، مثلما تناول هذا الفصل صحافة الكاريكاتير في المغرب سواء منها الصحف الساخرة الرائدة «أخبار الدنيا، الكواليس، أخبار السوق، التقشاب، الأسبوع الضاحك، أخبار الفن..»، أو الصحف الساخرة الجديدة (جريدة «بابوبي»، ملاحق ساخرة في صحف يومية..).

فهذا الكتاب يعتبر مكسبا للخزانة المغربية ووثيقة لتأريخ نماذج من فن الكاريكاتير، ويعتبر الأول من نوعه الذي أثار قضايا هذا الفن بكل جوانبه، مع حصوله ولأول مرة في المجال الفني على جائزة المغرب للكتاب.

إذن، ورجوعا إلى أهمية هذا الجنس التعبيري، فإن الفنان العربي الصبان يعكس جزءا مهما من تاريخ الكاريكاتير، كأحد رواده، وكفاعل مؤثر في الرأي المغربي، بجرأة رسوماته، وبحرية تعبيره، في ظل التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية، بمعية وعي المشرفين على منبر «العلم»، الذي أتاح له إمكانية نشر أعماله وتبنيها، كجزء لا يتجزء من قسم التحرير بهذا المنبر.

فالعربي الصبان بوعيه وثقافته ومرجعيته الدينية والثقافية والسياسية، كان منخرطا ولا زال في هموم الشعب المغربي البسيط، ولسانا ناطقا لما كان يراه من اختلالات في الأوضاع المتردية المتعلقة بالحريات الشخصية والممارسات السياسية النقيضة لتجليات الديمقراطية الحقيقية.

فما يميز تجربة العربي الصبان، هو إيمانه بالقضايا الهادفة، التي تصبو لتحقيق العدالة الاجتماعية والسياسية وتكافؤ الفرص، لكن بأسلوب فني يرقى بتقنيته إلى مستوى إبداعي خاص، يمكن اختياره بسهولة من بين كل الرسومات التي كان يمارسها الفنانون المغاربة، بحمولة مرجعية تختزل الأحداث بطريقة تعبيرية تجمع بين العين والكتابة، تعطي للمتلقي إمكانية القراءات المتعددة، لتجعل منه هو الآخر جزءا مندمجا في موضوع هذه الرسومات، نظرا لسلطة تعبير يفضي إلى أغوار الذات المبدعة امتثالا لحبكة وحرفة الفنان العربي الصبان، وكأنها رسومات أنجزت بمداد دمه.

وحتى لا أطيل، أعتبر أن الاهتمام بهذا المجال التعبيري، هو بادرة تستحق التنويه، شريطة أن تضمن صيرورتها وحريتها، لتنزع حق الوجود كضمير حي للمجتمع، وكسلاح رمزي قوي لاختراق كل أشكال الاضطهاد والتعسف واللامسؤولية، مع الإشارة إلى أن فن الكاريكاتير، قطع أشواطا مهمة بين الأمس واليوم، بفضل عزيمة المبدعين المناضلين أمثال الفنان العربي الصبان، لأجل غد أحسن.

مقامات العربي الصَّبان يُطَرِّزها مهماز التَّرجمان

مصطفى أجماع

هذه الشّرفة آفاقُها مُشْرَعةٌ ،
وهذا الفضاءُ نبضهُ شاسع ، يشيرُ إلى نوافذ القلب.
الآنَ ... نحن على عتبات منعطف صفات نظَرِ الاشتغال ،
في حَضرَة صَحْو. يَشُدُّنا خيطٌ رفيعٌ ، مُشاهدةً وشَوقاً وقُرباً للاسترسال.
عابرون نحن صوب مسالك التَّذوق الجمالي في اتُجاه الأفعال ،
عند ضيافة ما كانت تجود به جريدة العلم ، والقدس العربي.
حيث كان من هناك يبعث لنا العربي الصبان الرسائل لكل ذي بال ...

مقام الألفة

إذا كان واجب المبدع يتحدد في اتصافه بخصلتين أساسيتين، وهما: الأخلاق، واستكناه مسالك السؤال.
فإن روح الأستاذ المبدع للكاريكاتور بامتياز.
العربي الصبان تكمن في ذلك...
متيما رأيته بالوصل يوزع الجمال صَيْتاً ذَائعاً، فزاد اتساعا
يجتذبه الفن استلهاماً، ولم يشْتكِ يوما من عِشْقِه وداعا
أغنٌّ، يُعزُّ بمهماز تجليا، وديدنه عشق يحمله محبة واتباعا
ذات صباح، أوائل يوليوز سنة 1980 رأيته...
كان يعبر شارع علال بن عبد الله. شاهدا، متأبطا عدته، ناشرا ضوء أفكاره، ونوافذه مُشْرَعَةٌ للأفق.
وفي عينيه لمعان وبريق نحو الجمال المطلق. ناشدا الرؤى الخلاقة ...
وَلِهاً وَلْهَاناً، هو ذاته دون عناد. يمشي متواضعا، تواقاً، متأملا، رساما، شامخا، ساخرا...

ومن فرط شغبي الملحاح سألته؛ فأجاب مُرحباً.
وكان أول اللقاء الذي سَار ثم صـــــــار ...ومـــازال
وجدت الرجل في طقوس الطيبوبة غارقا، سريع الرَّد شاسعَ المعرفة صادقا... يثير ويشير.
(مرددا لازمته: أنا السَّـــــــــاخر ... أنا المـــوجود.)
ولفعل القراءة مشاء؛ متأملا، محللا، مفككا. فلم يتوقف عند هذه المنعطفات، بل عاج على غيرها، مروضا دروب الإحاطة في مِفاتن الاماطة لمجموعة من المعارف...
ومعنى أن تحاور البياض سَنداً. فذاك مدعاة للتأمل أكثر، فهو الماسك بتلابيب الفراغ، والسكون، واستدراج التراكمات، قصد الإنجاز والتطريز والتنميق والتنسيق. بصمته مهمازية الأفكار، صبَّانيَّة القيم والرؤى. فيُنْتِجُ موقفا، أو ردا نقديا لاذعا، مستحضرا مهارات تترجم الانفعالات إلى أفعال فنية سامية خلاقة، من خلال علاقة محفزة للبحث عن الحكمة...
أليس هو الناقد، النافذ، الضاحك، الساخر، الغاضب، القلق، الناصح، المنبه، المرتقي في ذكاء. الشاحذ لأفكاره، الباري قلَمَهُ، المسلح بريشته، الصامت المتكلم، الساكن الناطق، الناهض، المُفصِحُ الفَصيح...؟
فاقتفيت مَسَالك التمسك بتلابيب اللَّبيب في صحبة صاحب المهماز الأريب. والسير على نهج النَّسج الخصيب. مُؤَمِّلا (منتظرا)أن أغدو من المريدين. فحظيت بشرف الصداقة...
ولكي أتعلم منه أكثر فتنة الضحك الجاد في عدة أيام، دون رقيب. كان لابد أن أقيم جسرا جميميا، وأتخذ من مُقامي مريدا لمراودة ألفة التَّواصل مع الصفحة الأخيرة من الجريدة العلم. ثم يليها بعد ذلك جريدة القدس العربي (نسخة لندن)

مقام الساخر السالك ...

أنا مهماز...
ابن شرعي للعربي الصبان، رغم كيد الكائدين، (واللي بغا يموت يموت). ولدت كبيرا، ناضجا، مدركا، واعيا. - وصفاتي بأطوارها مسطرة عند العارفين -. ساخرا ضاحكا، حد المنطق. وإذا جاز لي تصديق أهله؛ إني إنسان أمتاز عن سائر المخلوقات بملكة الضحك ... صاحب قلب قادر على المرح، وميال إليه بشكل طبيعي. لكن
أنا الباكي الساخر، والساخر الباكي
تُوِّجَ نزولي بالإنتماء إلى هذه الأرض ببكائي. وحتما سأودعها وهناك من يبكي لفراقي ...وما بين النزول والوداع، ثمة عذابات، ومكابدات، يقتلها الضحك ويصهرها النسيان ...
قلت ابتسم، يكفيك أنك لم تزل حيا، ولست من الأحبة معدما 1
ففي الضحك، لا أَعُدُّ الخُطُوات، ولا أَلتفت إلى الخلف. لكن أسوق مقاماتي لصاحب الإشارات في صياغة رؤيته للعالم. أليس كل دعوة للضحك تتطلب سؤالا في حضرة مُقام (أبا عروب). وإلا غدا ضحكا مجانيا مبتذلا ...
أنا الساخر طارق الأبواب، مشرع النوافذ وقارع الأجراس. المنتبه، المنبه، الضحوك الضاحك، الداعي إليه. (و اااااا الا كثر الهم يضحك ...)
((فكلما طهر القلب رق، فإذا رق، راق. وإذا راق، ذاق. وإذا ذاق، فاق وإذا فاق، اشتاق. وإذا اشتاق، اجتهد. وإذا اجتهد، هبت عليه نسائم الجنة فيفرح بالطاعة. ومن ذاق، عرف. ومن عرف، اغترف. ومن اغترف. نال الشرف.))2
ومن فرط الشجن سألني سائل عن الضحك؟
فقلت له: ألا تراني فيه الآن.
وقال آخر: ما سر خطاباتك عن خَطْبكَ؟
قلت: نداءات بليغة أبعثها أثرا، ورسَائل فصيحة، أتشاطرها كسرة مع الأحباب والأصحاب والخلان... (والحاضر يبلغ الغائب)
أنا مهماز؛ كائن، كنت ولا زلت وسأبقى. أحلق عاليا ولي جناحان أؤلف بهما معزوفات للنصر شعارا. وأعود أرضا لأشير بهما إلى (لا) الرافضة. عتادي ريشتي في الافاق، أقارع بها وفي العينة الشيء الكثيرَ. أطرز إفصاحي، مستندا على سواد مداد (تين شيو) 3 حتى تنهض الفكرة. فأنا مجبول يوميا على محاورة الفتنة على سطح البياض. أراودها ساكبا عليها العطر، والسطر، والعبر، والخبر، والقدر، والدرر.
فلولا سواد المداد ما طلع فجر نهضة ...
شامخ أنت يا أبتي، ومن يدك يطل النبع، والمصب فياض، فتغرقني في تشكلات القلق كل صباح، حيث ألتقي القراء والعشاق. (ما أوسع صدرك)4 مقتفيا ما يحملونه من هموم وأحلام وآمال. فأشاركهم ذلك بسخرية سخية قاسية وخطاب لاذع...
أنا مهماز، وعم صباحا سيدي العربي
ها أنذا أطل على المحبين من نافذتي المشرعة بسعة الكون، رغم تقاسيم الحزن وعاديات الزمان التي أملأ بها زاد قفتي، المملوءة بالانشغالات، والارهاق، والتعب، والفراغ، وقلق الضحك. ومن خيراتها أحرث الابتسامة، وأغدق عليها الحُب الجميل فتغدو اثباتا، فتكبر وتنضج، كي تصبح ضحكة حقيقية مدوية مجلجلة، تدين ما يدان ...
أنا غماز بالإشارات، وبالريشة رافع الستائر، كي تبدو قضايانا جلية بكل تلويناتها، وأطيافها وهمومها، من باب حارتنا إلى أقاصي العالم. فأستلهم من هذا وذاك وجهات نظر ...
أنا مهماز، قنيطري، مغربي، عربي، افريقي، عالمي، إنسان كادح، كالح. مقيم في صفحات الجرائد، بفتوحاتي من الهامش أهش وأنش، حدَّ الازعاج، ساخرٌ وضاحك. أنا نباش، متعقب، غائص في التلافيف، ناشر للغسيل على حبل التواصل، اشوه القبح والبشاعة، وأبعث البهجة والسرور، وأبحث عن لحظة ضحك كالبكاء. أباركك
(أبا عروب)

مقام البحث عن لحظة ضحك

عليك بالضحك ثم الضحك ثم الضحك حتى يغمى عليك،
مع مودتي الضاحكة
هذا ما ورد نصا في الاهداء الذي مكنني منه العربي الصبان في كتاب كاريكاتير الصادر عن سلسلة شراع 1999.
فليت للبراق عينا فترى
فالصبان ومهماز. وجهان؛ والعملة واحدة؛

فَإذا أبصَرتني أبصَرتَهُ	**وَإذا أبصَرتَهُ أبصَرتَنا**
أيُّها السائلُ عَنْ قِصَّتِنا	**لَو تَرانَا لَم تُفَرِّق بَيْنَنا** 5

إنه القادم من التخوم الموغلة في المعارف، حمال هموم وفي عينيه أقوال، وفي خلده حكايات لقضايا وأمل. يصحبه خياله الشفاف السامي، شاهرا سعيه الحثيث، مخاطبا هذا العالم الفضفاض، غير المكترث بأوزار السرعة الجارفة وجنون التسابق والتلاحق والتحامق ... راصدا الحركات والألوان، وما تعثر وفسد منها؛ أخلاقيا، وسياسيا، واجتماعيا. ناشرا أوساخها عاليا. كاشفا عن أصحاب الأيادي الطويلة والملطخة والقدرة. في واقع متفسخ مملوء بالزيف والوهم والتشويه والتصادم.
فالصبان وجمهرة من أهل الانتساب لهذا النوع من الفن؛ أمثال بهجت وبهجوري وفرحات وحاكم وحجازي وحمودة والفيلالي والدرقاوي والزواوي وعبد لكي ومصطفى حسين وناجي العلي وحبيب وبختي والدهدوه وبلعيد وآخرين

من السابقين واللاحقين ...وإن كانت تجاربهم تنوعت واختلفت، يبقى رابطها الوحيد، هو تقاطعاتها في بعد ها الشفاف، المقرون بالخبرة. وفي تمثل يتجسد في كشف المستور وفضح الممارسات غير المقبولة...

الكون الى جمالكم مشتاق والعالم كله لكم مشتاق
من أين ترى يا سادتي طينتكم ما أطيبها تبارك الخلاق 6

أيها الهماز، الغماز، النَّغاز، اللماز، مهماز ... الرمز المغدق بالهموم، والظاهر بزهد المظهر، والذي لم يغادر دلالات لباسه. وهو إلى البساطة ينتسب. المجدد لمساحات الحوار والمساجلات المثمرة ...

إن شاهدته، عرفته بسحنته، وإن عرفته نلت الإدراك.

بخبرته المعهودة هو عراف للأحوال والأهوال. لا يرتاد مباهج الصالونات، ولا يتأثر بالمناسبات والافراح بغرض تقمص البهجة، كما لا يغير جلده.

حافي القدمين، مؤكدا على أن ((حضور الفنان في مجتمعه يكون مقرونا بمدار انتاجه ومدى مشاركته وفعاليته وتأثيره لكي يعمق من تجارب المجتمع ويعمل على توعيته وتنظيمه))7

متمرس في تناول قضاياه /وقضايا الناس أجمعين، تدركه بأسلوبه المتفرد المتميز وطريقة توقيعه وحضوره الشاهد وكأنه يقول:

((... إنني كذلك في كل ما فعلت وما سوف أفعل، لكن ليس بمعنى التجريب المختبري، وإنما بمعنى افساح المجال للمضمون، ليتشكل وللشكل ليتقولب مع المضمون، وليتحرر في نفس الوقت من قالبيَته))8

مقام حوار الألفة

للكاريكاتور رشفة خاصة، لا تحتاج لوسيط أو ترجمان؛ لأن الفنان المبدع عاقل جدا ...ومجنون جدا.

دون ترتيب أو تكتيك مسبق، في صباح يغري باللقاء، تفتق فيه الكلام.

اجتمع نفر من أبناء القنيطرة...

ثلاثة كنا، ورابعنا الصحفي الخلوق حمادي الغاري، صديقا قريبا. وآلة تسجيل استقرت بيني وبين الصبان على منضدة مكتبه، حين ذهب المرحوم إبراهيم لشكر يحوم حولنا، كنحلة نشيطة يوثق اللقاء بآلة تصوير ذات زووم طويل، بعدها، سيحتفي الصحفي المتمرس في اقتفاء أثر الكاريكاتور وأهله، الأستاذ بوشعيب الضبار، بالحوار على صفحات الملحق الثقافي لجريدة الميثاق الوطني. في أحد أيام نونبر 1989

ففي حضرة مهماز نضحك وبداخلنا حزن ...

لأنه من المؤلم جدا أن نضحك كثيرا وبداخلنا حطام لا يرمم

ومتعة نشاطه لوحدها تمسك بتلابيب (الغاشي وهو ماشي). بينما رسائله لا تكتفي بالنص البصري التلميحي. بل تعطيه قيمة للمحتوى، من خلال الإبلاغ والتبليغ. فليس عيبا أن يتخذ أسلوبه الخاص. ما دام الرجل هو الأسلوب. وأن تنصهر أشياؤه المضيئة باستمرارية، وينجزها في انسجام تام، وبسمو الجوهر بغية تحقيق الجمال وتأثيث مباهج الذوق السليم ...

إنه صائد السخرية والداعي إليها، فالعالم آلة تصوير عدستها لا تخطئ تخاطبك:

ابتسم من فظلك، فالابتسامة واجب اجتماعي

مقام لسيناريو الساخر الساحر

يَسْتند هذا المقام في جذور جذوته إلى ما تم تدبره من لهيب الجمر، المعلن أكثر من المضمر. وفي ذلك سئل سيزيف الرافض حمل الصخرة، المكافح والمتأمل والمتمرد، صانع وعيه وقدره الخاص، ومراقب البوصلة، والمتحدث عن عبثية العالم الذي لا يخضع لمعايير العقل، وهو اللاقط والباحث عن السخرية ...

أأنت ناشر العيوب، كما تدعي، يا هذا؟
منشارها، وعلى قدر أهلها تأتي السخرية.
وما قولك فيمن صاحبته بطاقيته؟
ابن شرعي، سميته مهمازا، وجل الناس يعرفون ذلك.
وكأنك سعيد بأفعالك هذه؟
حالة فنان ساخر...
أنت ساحر ومجنون و حمَّال أوزار....

((وقد تحمل الصبان كل الرياح التي هبت، وهي من مصادر متنوعة ومن عيارات متنوعة، وتعاشر مع صاحبه أبو طاقية، المنشغل دوما مع قفته، ومع الأيدي الممتدة من خلف المكاتب تطلب من «الحلاوة» إياها))9

كان ومازال مشدودا إلى هذه الأرض أكثر فأكثر. يحمل أناشيده وعدته، ممجدا نبل الإنسان. متواصلا مع ذاته وهو يكرر

قلت ابتسم مادام بينك والردى شبر فإنك بعد لن تتبسما 01

فالكاريكاتور لا يمكن أن يحيا دون مد جسور الصحافة، حتى تبقى علاقته مفتوحة.

ومما يثير السخرية، كيف وقع حافر الحفار على حافر الساخر فسقطت النقطة من كلمة الساخر ...

مقام فصاحة بالبياض تدنو

الطيور البهية، تحلق عاليا خالقة الجمال، مدركة معنى مقت الفراغ. فإن اضطربت، لا تتواصل. او اجتاح مضجعها القيظ او الدخان تكتفي بالمشاهدة فقط، فيعتريها اشتعال الحزن وغرابة المقام، لاجئة الى السكون ...وفي سكونها كلام

لكنها كيف تأكد علاقتها مع البياض احتجاجا وهو هامة ملغومة، كيف تقودها أفكارها أن تقتحم هذه الشساعة الغامضة وتخترق هذا الالتباس ...

وأنت في دورة البياض،

تمهل... تذكر أن العالم لا يعبأ بالمرافئ المغلقة، ما دامت الأرض تدور دون مشورة ساحر أو ساخر، فدافنشي الجم المونااليزا من الضحك، حتى يبقى سرها غامضا لا نعرفه ...وتذكر الغائب الحاضر، ومن خلاله، كيف كان يطل كل صباح عليك مهماز مصافحا، يقدم لك العالم على طبق ساخن ساخر. فيخبرك عن الساحق والمسحوق، واللاحق والملحوق، وعن الغاضب الغارق، والمخنوق، وعن الناطق اللاهث والمنطوق، والشاهد والمشنوق.

وعن زماننا كأهله وأهله كما ترى
وسيرهم كسيره وسيره إلى ورا 11

وانت أمام البياض ((... إما متمرغا بالضحك فوق التراب، أو متمرغا بالآلام فوق الفراش؟))12

يدعوك: هيا انخرط، انجز، تمسك بالفعل، واهجر العلل ((فالمعاني مطروحة في الطريق، يعرفها العجمي والعربي، البدوي والقروي، وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخير اللفظ))13

يا بياضا جئت إشارة، ودعوة، ورسالة، وتواصلا، وتحريكا، للصمت والسكون. فالطبيعة تكره الفراغ.

إنه اتصال، وحصن، واعتصام، واختيار، وخلاص، واعتكاف، واشارة، واشتياق، وازعاج، وبعد، وابتلاء ....

مقام أقدار حرماز ومهماز

الصداقة صدق وضياء، على أرض صادقة. يهدهدها الاخضرار الدائم.

وهذا مقام حرماز في رسائله بالسؤال عن مهماز:

وهي رسائل جنان الأحباب والخلان. كما كان يسميها ...

ومن بعض ما جادت به ذاكرة التذكر:

ـــ قل لسي العربي أن حرماز ومهماز في كفة واحدة، فأنا أخوه وذاك ابنه

ـــ قل لسي العربي اضحك ما دمت حيا ...وكثيرا ما قال... كان صادقا في حبه صدوقا في صداقته

(إشارة ... حرماز رحمه الله كان من طينة أهل القنيطرة الطيبين، امتهن الجزارة. وارتبط دكانه بمعلمة الخبازات وبالضبط زنقة 36. كان عاشقا ملحاحا للمعرفة، والتواصل، ذكيا في السؤال، سريع البديهة، وان خانته في بعض الأحيان.

كنت كلما عَبَرْتُ اتجاهه، ألـحَّ بإطناب سائلا عن سي العربي كما يحلو ان يسميه دائما. فيحملني له عدة رسائل ...)

وللصبان صداقات تنبض بحرارة الإحساس الوجداني والعطف الإنساني الخالد، لذلك كان يستمد نغمات ايقاعاته ومشاعره من القيم الاجتماعية المغربية الأصيلة، التي ينتمي إليها. فكيف لا يتفاعل مع أفرادها ويرسم الواقع ...؟

الهوامش:

1 – إيليا أبو ماضي من قصيدة ابتسم – الديوان –ص:655 دار العودة بيروت - د ط . د ت

2 - ابن قيم الجوزية https://lujain-37.tumblr.com/post/189190572775

3 – تين شيو - مخترع المداد الصيني

4 - أبو الحسن الششتري – الديوان https://www.aldiwan.net › poem69

5 –https://www.aldiwan.net/poem67610.html أبو المُغيث الحُسَين بن مَنْصُور الحَلاّج

6 - محمدَ علي الرباوي – الأحجار الفوارة (عنوان قصيدة) ص :22 -منشورات المشكاة ط1 1991-

7 -عباس الصراف ـآفاق النقد التشكيلي – ص :283. دار الحرية للطباعة. بغداد. العراق. وزارة الثقافة والاعلام. دار الرشيد للنشر

8-الطاهر وطار – تجربة في العشق (رواية) موقع: – noor book.com

9 -عبد الكريم غريب – العربي الصبان الكاريكاتيريست وفنان الرسم الساخر (شهادة العربي المساري) ص 306 منشورا عالم التربية المغرب ط -1 2009

10-إيليا أبو ماضي من قصيدة ابتسم – الديوان –ص:655 دار العودة بيروت - د ط –د ت

11 -عبد الله كنون –النبوغ في الادب العربي ج1 ط2 1960 ص 655

11 -بوجمعة أشفري –الفن بين الكلمة والشكل ص125 – الجماليات منشورات الرابطة المغرب ط1. 1995

13 – ابي عثمتن بن عمر بن بحر الجاحظ كتاب الحيوان ج3ـ ص: 131 ط2

تحقيق وشرح: عبد السلام هارون شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابلي الحلبي وأولاده

رائد الكاريكاتير الفنان العربي الصبان..

عبد الحق بن رحمون

لعل أكثر ما يلفت الانتباه في هذه المرحلة الراهنة بعد عصر جائحة كورونا التي تعيشها الصحافة العربية الورقية والالكترونية، هو التخلي عن فن الكاريكاتير وأقصد ذلك الفن المؤطر بأفكار وبمبادئ وبخبرات وتجارب تأتي متجاوبة مع خط التحرير أو خلاصة يومية للمعيش اليومي.

ما يُرسم اليوم هي أفكار سائبة ورصاصات طائشة، تشبه تمارين لتعلم إطلاق الرصاص من حبر الخراطيش.

في رأيي دائما الرسم الكاريكاتيري الناجح هو الذي يعتمد على الورق والريشة والحبر بما يعني أدوات ووسائل متقشفة وبسيطة دون أن تحتوي على ألوان أو توضيحات كتابية.

المهم الفكرة ونسبة كبيرة من التركيز للوصول إليها أو نقطة مميزة لوجه من الوجوه.

لم يعد اليوم بالإمكان أن نتحدث عن الريشة والحبر، وكم تستغرق الفكرة لإنزالها. فالكثير من الرسومات التي نصادفها هنا وهناك؛ تكاد تتشابه في المبالغة في الدقة الرقمية الفتوشوبية المستنسخة، بشخصيات متحركة أو بورتريهات آلية لا أكثر .

أول تواصلي ومعرفتي بالفنان الرائد العربي الصبان كان من خلال جريدة العلم التي كان والدي من الحريصين على اقتنائها إلى جانب عناوين صحف وطنية أخرى.

ولما أقول جريدة العلم، وجريدة الاتحاد الاشتراكي، وجريدة أنوال، أقصد بذلك الحس الوطني لهذه الصحف ومدى تأثيرها في صناعة الرأي والوعي بالمسؤولية والرغبة في التجديد والتغيير.

كان والدي رحمة الله عليه يبدأ قراءة جريدة العلم من أول صفحة إلى آخرها، وهو يحرص على عدم توزيع صفحاتها، أو فصلها عن بعض، وأكون وقتها جالساً إلى جانبه في انتظار أن تجهز والدتي وجبة الغذاء وسماع أذان صلاة الظهر ... وأهم ما ما كان يلفت انتباهي هي رسومات العربي الصبان، وشخصيته الشهيرة مهماز.

كنت أنا وأبي نشاهد هذه الرسومات التي تشرح دواخل الانسان من الأعماق، وتتعاطف مع المعيش اليومي فهو لسان حال الأغلبية الصامتة . ولسان الحرية .

ولقد شاءت الصدف أن ألتقي بالعربي الصبان في الكثير من المناسبات، أولها بجريدة العلم ثم في معرض للكاريكاتير كانت نظمته الشبيبة الاستقلالية بشفشاون، وهو بالمناسبة أول معرض ينظم بشفشاون حيث كسر الفكرة الرائجة وهي أن عرض لوحات فنية للكاريكاتير ممنوع وخط أحمر .

ما معنى أن يتناول الفنان الحرية بكامل دهشتها في مرحلة تأسيسية مع رياح وتيارات قادمة من مدارس مشرقية، وغربية تتطلع لغد مشرق في ظل انكسارات وقمع .. والبحث عن أدوات مماثلة للكلمة في التعبير الصادق، ومحاولة الانفلات من الخط الأحمر للرقيب .

إن ما أنتجه الفنان العربي الصبان من رسومات تعتبر اليوم ثروة، تشكل مرجعية للباحثين والدارسين في علم الاجتماع، وهي رسومات صالحة لكل مكان وزمان، وهي بلغة عربية فصيحة وعامية، حققت ولا تزال اندهاشا بصريا بكلام أقل، وبخطوط سريعة وفي منتهى الدقة. وتعتبر تأسيسا لصحافة الكاريكاتير المغربي الوطني بالموزاة مع ما أسسته صحف عربية رائدة.

والعربي الصبان، يعتبر من أبرز رسامي الكاريكاتير إلى جانب عدد من الرسامين المؤسسين الذين ساهموا كل واحد من موقعه ومن مرجعيته الثقافية والبيئة في تأسيس الكاريكاتير المغربي الملتزم.

العربي الصبان، له بصمة إبهامه الخاصة في رسوماته حتى وإن لم يوقعها باسمه، فهي دالة على أسلوبه، وواضحة بمعانيها في الساحة الإعلامية والفنية ... فهو من بين الأوائل المؤسسين لفن الكاريكاتير بالصحافة الورقية الوطنية، بفنه وسلوكه وأخلاقه. وهو معلم للأجيال حيث يعد مدرسة لهم، إما بشكل مباشر أو غير مباشر، أو حتى أولئك الذي تمردوا على ذكر تاريخ تأسيس فن الكاريكاتير بالمغرب فإنهم يتراجعون ويلتزمون بذكر اسمه في تأسيس نموذج فني لفن الكاريكاتير..

الفن الصامت والساخر الذي يبتعد عن الثرثرة ويكتفي بكلام أقل .

ولعل أكثر الأسئلة المتداولة اليوم هل ما زلنا في حاجة إلى فن الكاريكاتير في ظل الأزمة التي تعرفها الصحافة ... في الوقت الذي نحتاج إلى تغيير الصحافة الإلكترونية والورقية على حد سواء، من شكلها وطريقتها الكلاسكية لتقترب من الجمهور القارئ وتبتعد عن التفاهة .

فالصحافة المكتوبة والرقمية والإلكترونية عليها أن تتوحد في رؤية واحدة، حتى لو كانت مستقلة لتبتعد من اصطياد الاشاعة وصناعة جمهور من التفاهات.

الرسم كاريكاتيري خطير ومهم فقد يكون أبلغ من افتتاحية أو كلمة رأي أو خطاب زعيم سياسي..ولوحة كاركاتيرية قد تغير مزاج الغاضبين والخانقين الذين يقيمون في الكراسي الوتيرة أو الذين يضعون في جيوبهم آلة التحكم عن بعد في حزب سياسي أو مؤسسة خيرية .

شخصية «مهماز» العربي

حارس معبد الحرية: العربي الصبان، الفنان والصحفي الرائد الملهم للأجيال، أحد حراس معبد حرية التعبير .. فنان زهد في كل شيء..

وضمير بصيغة الجمع، يتحدث بالريشة والحبر الأسود ويعبر عن همومنا الاجتماعية والسياسية.

فنان، مبدع ومثقف، وقارئ جيد للتراث، وموثق جيد لتاريخ ومرجعيات فن الكاريكاتير بالعالم الأوروبي والعربي.

له عين ثاقبة ونافذة، يرصد نبض الشارع المغربي، ويومياته من خلال رسوماته الكاريكاتيرية العابرة للأجيال التي لها قوة الابداع وفصاحة التعبير، فهي صالحة لكل مكان وزمان بانتصاره للطبقة البروليتارية والكادحة، وبذلك يمكن وصفه أو تسميته بلسان حال الفقراء والمغلوبين بسخريته اللاذعة من الباطرونا والرأسمالية التي يرسمها ببطنها المنفوخ والملتصقة بالكراسي الوثيرة.

تناول حياة المغاربة الاجتماعية والسياسية من غير رتوشات، وبلغة فصاحة الضمير الحر، الذي عنوانه البياض والريشة والحبر الأسود.

تناول شخصية مهماز، الذي اختاره من الشعب والذي عرف بطاقيته ونظرته الحزينة.. وأضاف إليه صفة الالتزام بالمبادئ والاختصار في الكلام.

وظل مهماز مصاحبا للعربي الصبان في جميع التقلبات المناخية والسياسية، التي عاشها المغرب في فترة حرجة أدى ضريبتها عدد من المثقفين والصحفيين والتي عرفت بزمن الجمر والرصاص.

والصبان الذي دخل إلى كل بيت مغربي ، تحولت رسوماته أقوى بلاغة من نشرة أخبار أو خطبة زعيم حزب سياسي أو مثقف أو مفكر، حيث كسر برسوماته الطابوهات، وقدم للمغاربة صورة

علمهم السحر وبيان السخرية والريشة

اجتماعية مبنية على القيم والمبادئ المتشبعة بروح الوطنية الرفيعة والمسؤولية.

***

كم يستحق فنان الكاريكاتوريست العربي الصبان من جائزة وطنية ومن تكريم .. لقد أبلى هذا الفنان البلاء الحسن بالريشة والفكرة، من خلال ابتكاره لشخصية مهماز المغربي _ العربي، هذه الشخصية التي اختفت وانـزوت إلى الظل بعد أن حصل العربي الصبان على التقاعد؟

فشخصية ''مهماز'' لم تكن تعبيرا، ساخرا بالريشة، فهو شخصية خارج إطار اللوحة والريشة التي تتنفس هواءً نقيا، وتتجول وتعيش في كل حواري وأسواق العالم العربي، ولا تستسلم لضنك العيش وقرفه ولاتساوم الساسة وصناع القرار.

ويمكن وصف ''مهماز'' بالشخصية الشعبية المخضرمة، القوية، يفهم في كل شيء، وينتقد العالم العربي، ويثور أحيانا على نفسه، وينتفض لما تكون الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية حالكة، وتستهدف قدرته الشرائية، ولا عجب أن يعود ''مهماز'' مرة أخرى، بعد غياب طويل ليرتدي السترة الصفراء تضامنا مع المحتجين في باريس... هل ممكن عودة ''مهماز'' ؟

ليس مهما أن تكون رساما، وتملك التقنية والخبرة في الألوان، ولكن الفكرة والعبرة هي إبداع الفكرة وحمل المشروع الانساني والمجتمعي، وتكون تقنع بالقليل لتربح النظرة إلى المستقبل.

فالكاريكاتير عند الفنان محمد الصبان، لم يكن مجرد حالة هواية، أو وليد الصدفة، لقتل الوقت الرابـع، ولكن كان احترافا، وقضية أبلغ من الكلمة، ومن تقويسة ضربة النبال.

هذا هو الفنان العربي الصبان .. فنان رائد . وفنان جعلنا في فترة عشناها بالأبيض والأسود نقرأ صحيفة العلم من الصفحة الأولى لنبحث عنه في الصفحة الأخيرة. وتجربة الصبان في رسم الكاريكاتير اليومي، اعتبرت إضاءة لافتتاحيات رؤساء التحرير، أيام الصحافة الحزبية الرائدة التي كانت تنتقد الواقع المعتم، وتجعل من مهماز أيقونة في هوامشها وعناوينها البارزة بالبنط العريض من خلال انتصاره للفقراء والمحرومين . كم نحن في حاجة اليوم لرسومات هذا الفنان، الذي كان يخدش بأصابعه وريشته الواقع المغربي المرير، قلما نجد اليوم رسومات ببلاغتها وحمولتها المعرفية والاجتماعية من قبيل ما كان يرسمه الصبان من تفاصيل دقيقة تعبر عن هوية إبداعه وإحساسه. الصبان شكل حالة استثنائية في الصحافة المكتوبة المغربية، ومنها الحزبية على الخصوص ، وكان وما يـزال ريشة مزعجة، ومرحة وغاضبة . الصبان مدرسة للعصامية، ومدرسة للدرس الاجتماعي، والنفسي الذي يعيشه العرب في واقعهم اليومي الهش. فمواضيع رسوماته ما تـزال تحمل نفس القوة والمضامين، في واقعنا الآن بمعنى هي رسومات للمستقبل وغير مرتبطة بتغيير في السياسات والعقليات . وستظل رسوماته صارخة وفاضحة وتقول كل شي بصراحة ومن غير مواربة.

إنه الأبيض والأسود بفضاحتهما ، لقد مللنا من الرسومات الكاريكاتيرية الملونة ، ولنعد إلى الأبيض والأسود كما كنا سابقا . لأن العبرة في الفكرة وفلسفتها وليس في التزويق والتلوين.

ملف

العربي الصبان متفرد كفنان ومنفرد كإنسان

بناجي الناجي

الحديث عن سي العربي الصبان هو حديث عن فنان متفرد في مساره وإبداعه، ومنفرد أيضا في خصوصياته الإنسانية، فهذا الرجل الذي بصم المشهد الصحفي برسوماته الساخرة، يعتبر بكل المواصفات فنانا رائدا في الكاريكاتير، وسبّاقا إلى ترسيخ هذا اللون من التعبير في الممارسة الصحفية وكذلك في المشهد الفني بالمغرب، ومثلما كان له شرف السبق والريادة في هذا الفن الصحفي، كانت له جرأة الإقدام وشجاعة التعبير، وخاصة في ظرفية عرفت كثيرا من الاحتقان والتوتر السياسي وضيق هوامش الحرية.

فالحديث عن سي العربي الصبان الصحفي الفنان لا يجب أن ينسينا صورته كإنسان، فهو بحق كائن مرح، يميزه نزوع متأصل نحو البساطة والتلقائية والبعد عن تكلف. بيد أن هناك صفة لازمته وما تزال إلى يومنا هذا، وهي انطوائيته التي طبعت سلوكه، وإصراره على الهروب المستمر من المجتمع والأضـــــواء، ونفوره الفطري من واقع الواجهة والوجاهة، وهذه خصوصية تميز بها سي العربي، وطبعت سلوكه الاجتماعي، الأمر الدي يضعنا أمام مفارقة لافتة للانتباه، لأنها تتعارض مع شخصيته الصحفية والفنية، والتي تظهره في صفة الفنان المتفاعل مع الواقع الاجتماعي، وترسم له في أذهان القراء والمهتمين بأعماله الكاريكاتورية، صـــورة الفنان المناضل، المنفتح على كل ما يجري حوله. وربما يكون سي العربي قد قتنع أنه بهذه الطريقة، يستطيع أن يحافظ على كينونته الإبداعية، ويهرب إلى نفسه كي يصون خزانه الفني من التبديد والضياع في متاهة الجري وراء علاقات عامة، قد لا تلائم طبعه ولا تفيد إبداعه.

مع كل هذا وذلك يظل العربي الصبان قابلا للقاءات أخرى، بخصوص مساره الصحفي والفني. وإذا كانت صفته كرسام للكاريكاتير، قد طغت على جانبه الصحفي، فإن ذلك لا يمنع من القول بأن له كتابات صحفية جيدة وطريفة، بيد أنه لم يكن يميل إلى الإكثارمنها. ولعلها سطوة الريشة التي كبحت جذوة الكتابة وأعطت الامتياز للرسوم الساخرة، على حساب القلم، وذلك حديث آخر...

تحتاج تجربة العربي الصبان أكثر من مجرد ورقة كهذه، فأعماله الكاريكاتورية تمثل مرجعا تاريخيا قائما بذاته. لقد عمل طوال تجربته على أرشفة الواقع المغربي والعربي والعالمي بدقة متناهية، ففي الوقت الذي ينصرف فيه الجنرالات لحروبهم والكبار لفضائحهم والمهزومون لدموعهم، ينصرف العربي الصبان إلى أقلامه وحبره ليقدم شهادته للرأي العام، شهادة يحتاجها التاريخ دائما ليتذكر طفولته وحماقاته.

عبد الرحيم الراوي

أولا أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى رئيس جمعية النجم الأحمر للتربية والثقافة والرياضة والتنمية الاجتماعية ، سي بنعيسى الشايب وإلى سي محمد الشايب وإلى كافة أعضاء الجمعية على تنظيم الملتقى الثاني للفنان الراحل ناجي العلي ،والـذي يكرم هذه السنة الفنان والإعلامي العربي الصبان.

العربي الصبان

تجربة إعلامية ناجحة ومسار متفرد بين الكتابة وفن الكاريكاتير

خلال السنة الماضية وفي هذه القاعة بالـذات، كانت مداخلة بعض الأساتذة الأجلاء من بينهم الأستاذين شفيق الزكاري وبنيونس عميروش، وذلك في الندوة التي نظمتها الجمعية حول تجربة الفنان والإعلامي الراحل «حمودة» وكانت من تنشيط الأستاذة ثريا البدوي التي تعذر عليها الحضور لأسباب شخصية ومهنية، أما هذه الدورة فقد اختارت إدارة المهرجان الاحتفاء برائد من رواد فن الكاريكاتير الفنان والصحفي العربي الصبان.

عندما تشنف مسامعنا بهذا الإسم، تحذونا رغبة ملحة في السفر عبر الزمن الجميل للنبش في أغوار تجربة طويلة ومليئة بالعطاء في مجال فن الكاريكاتير، رحلة تجعلنا نكتشف، اسما شكل على مدى عقود، قامة فنية وأدبية أبدعت في ملامسة الظروف الاجتماعي للمواطن المغربي، وتمكنت من اختزال معاناته في خطوط تجسد الواقع الاجتماعي والاقتصادي بطريقة ساخرة تحمل رسائل مشفرة للمتظلمين، كي تنصف ذوي الحقوق من المواطنين.

فلا يسلم من سخريته لا سياسي وصولي، ولا نقابي انتهازي، ولا رجل دين متطرف ولا إداري فاسد، ولا رجل سلطة مستبد ولا مشغل جشع.. كل هؤلاء يجدون أنفسهم، تحت رحمة ريشته التي تشبه نصل السيف، لا تعرف المجاملة ولا تخاف لومة لائم في زمن عرف في التاريخ الحديث بسنوات الرصاص.

العربي الصبان الرجل الذي نحت اسمه بأحرف من ذهب في مسار مهني متفرد، يجمع بين الرسم والكتابة بأسلوب سلس وبلغة راقية، حيث كانت تخصص له جريدة «العلم» ركنا يحمل عنوان «التنكيت في زمن التبكيت» يتطرق فيه سي العربي إلى العديد من المواضيع الاجتماعية والسياسية، بأسلوب يبدع فيه باللعب على الكلمات وكأنه يرسم لوحة كاريكاتورية، فلو لم يكن سي العربي فنانا، لما كان كاتبا ناجحا؛ يقول الإعلامي والكاريكاتيري الناجي بالناجي.

كان سي العربي يمنح نفسه هامشا من الحرية على صفحات جريدتي «العلم» و«لوبينيون» فيشرع في مَلء صفحاتها البيضاء برسومات يختارها شخصيا، متحملا مسؤوليته بكل شجاعة دون الأخذ بعين الاعتبار ما يمكن أن يترتب عن ذلك من مشاكل، لكن الأهم بالنسبة له هو إبداء رأيه من زاوية تنسجم مع أفكاره وفلسفته في إطار احترام كل القيم الإنسانية النبيلة، فيوظف سخريته اللاذعة، كأسلوب نضالي وحضاري للدفاع عن حرية التعبير وحقوق الإنسان، بغض النظر عن الانتماء العرقي أو الديني أو الثقافي..

ورغم أن الساحة الإعلامية، منذ بداية السبعينيات إلى غاية التسعينيات، كانت تزخر بأسماء إعلامية اشتهرت بإبداعها في رسم الكاريكاتير، كالفنان الراحل محمد عليوات المعروف بـ«حمودة» ومحمد الفيلالي وحميد البوهالي وإبراهيم لمهادي وآخرين... الذين شكلوا في زمنهم، تجربة رائدة في تاريخ الكاريكاتير الإعلامي بالمغرب، إلا أن سي العربي الصبان، حافظ، على أسلوبه الخاص برسوماته، حتى أصبحت لديها هوية تعرف باسم صاحبها عند القاصي والداني، بل أكثر من ذلك، يعتبره بعض النقاد مدرسة قدمت خدمات جليلة في فن الكاريكاتير، والتي بفضلها تخرج العديد من الرسامين الشباب المغاربة.

ونحن بصدد تجربة مهمة في فن الكاريكاتير الإعلامي، لا بد من طرح سؤال مفاده: لماذا لم نعد نر الكاريكاتير في الصحافة الوطنية باستثناء بعض الجرائد القليلة، علما أن الرواد أمثال سي العربي الصبان ورفاقه، أعطوا نموذجا ناجحا، وشكل انخراطهم في العمل الصحفي إضافة نوعية مازال العديد من القراء يتذكرها إلى يومنا هذا.

هناك من يربط هذا الغياب القسري في الجرائد الوطنية بالتحولات السياسية، وهذا طرح خاطئ في نظري، ذلك أن الكاريكاتير لا علاقة له لا بالتحولات السياسية ولا بمفهوم الزمن Notion du temps .

إن فن الكاريكاتير كان على الدوام شاهدا على الأحداث المحيطة بالإنسان في كل مكان وزمان.. يرسم تفاصيل حياتنا بسخرية، بعد أن يكشف عن تجاوزاتنا وعن سلوكاتنا المشينة، فهو المرآة التي تعكس صورتنا الحقيقية بعيدا عن التنميق والتزويق، لهذا كان فن الكاريكاتير عبر الأزمنة جنسا مرتبطا بالعمل

الصحفي، يهتم بالخبر ويعلق عليه بطريقة فنية تمتزج فيها الحسرة والضحك L'humour noir.

أعود لأطرح سؤالا آخر، هل اسم العربي الصبان كان سيعرف لولا الإعلام؟ هل كانت موهبته ستكون مؤثرة في الوسط الشعبي لولا فرصة العمل في الصحافة ؟

لابد أن أقر أمام الحضور الكريم، باندهاشي أمام وجود طاقات شابة موهوبة، صادفتها بالمهرجان الدولي للكاريكاتور بإفريقيا المقام أواسط دجنبر 2023 بأكادير، والذي يرأسه الفنان والصحفي سي الناجي بناجي، حيث لمست بكل إعجاب أعمالهم وإبداعاتهم، لكن للأسف لم يجدوا طريقهم نحو الشهرة، فقط لأن رسوماتهم لا تنشر على صفحات الجرائد الوطنية، ومن تم نخلص جازمين بأن الإعلام هو الأداة الفعالة والقادرة على إبراز أو إقبار المواهب.

تحسرت كثيرا لهؤلاء الشباب وقلت في قرارة نفسي، كم من العربي الصبان يضيع في هذا الوطن؟

ولو أن الكاريكاتير يستدعي المبالغة التي تفرضها الضرورة الفنية، إلا أن الفنان الصبان، غالبا ما يفلح في ترجمة كل التجليات والأوصاف والتفاصيل الدقيقة التي تلتقطها عينه في محيطه اليومي، إلى رسومات موشومة بشخصية «المهماز»، تجعل المتلقي يقرأ الصورة بوضوح ويدرك الرسالة التي تحملها دون أدنى عناء، وهو القاسم المشترك الذي يجمع بينه وبين الكاريكاتيري حمودة، أما الاختلاف فيكمن في الجانب التقني، ذلك أن رسومات حمودة غالبا ما تكون بخطوط رقيقة تجسد أشخاصا بقامة طويلة، عكس رسومات العربي الصبان التي تكون بخطوط سميكة وشخوص قصيرة.

العربي الصبان يحلق كالنسر عاليا ليرى ما لا نراه نحن الذين نمشي فوق الأرض كالزواحف، قد يبدو انطوائيا ومنعزلا لأن الرجل قليل الكلام، ولكن ما إن تقترب منه أو تجالسه، حتى تكتشف شخصا مثقفا، مرحا، مسالما، ظلا وارفا من المحبة والصدق تجاه الأخرين، موسوعة معرفية مهمة.. يفاجئك في نقاشاته وإلمامه العميق وتحليله الدقيق سواء تعلق الأمر بموضوع علمي أو أدبي أو فني أو فلسفي أو ديني، وهذه من بين الميزات للعربي الصبان، والتي تشكل مصدر نجاحه، كرجل فنان بخلفية ثقافية وسياسية.

وكما قال رفيق دربه الصحفي المقتدر بوشعيب الضبار «إن أبرز المحطات في طريق الصبان كثيرة ومتشعبة، واختصارها ظلم له كصاحب تجربة طويلة»، لكن رغم ذلك نذكر ببعض المحطات الرئيسية في مساره الفني والمهني .

فكانت للعربي الصبان إسهامات إلى جانب الفنانين محمد الفيلالي وحميد البوهالي في تأسيس أشهر جريدة كاريكاتير مغربية بعنوان «أخبار السوق» في أبريل سنة 1978، وقبلها صحيفة للرسوم الساخرة بالفرنسية، اسمها "ساتيريكس".

وخلال 1980 شارك في تأسيس رابطة رسامي الكاريكاتير العرب في دمشق برئاسة الشهيد ناجي العلي، إلى جانب كبار الرسامين المشهورين أمثال جورج البهجوري وأسماء أخرى.

بالإضافة إلى مساهمته في المهرجان المغاربي للأشرطة المرسومة والكاريكاتير في مدينة وهران بالجزائر سنة 1990.

والقائمة طويلة..

ملف

تعلمت من العربي الصبان أن القراءة ضرورية لإنتاج رسم مسؤول

مبارك بوعلي

كانت مشاركة فنان الكاريكاتور مبارك بوعلي، شهادة توصل بها المنظمون من كندا، على شكل شريط فيديو مصور، تحدث فيها عن بداياته الفنية في جريدة العلم التي يعتبرها مدرسة في مجال الصحافة والإعلام إلى جانب الكاريكاتور، وتبقى للعربي الصبان ميزته المتفردة والنوعية في هذه المدرسة، مشيدا بما استفاده منه كثيرا، وبالخصوص من خلال ما كان ينشر حينئذ بالعلم من رسومات، وهو في مرحلة الشباب التواقة للمعرفة والفن ...

كان اتصال بوعلي بالعربي الصبان، في نهاية الثمانينيات، حيث سيجد فيه الرجل صاحب الحس التربوي البيداغوجي الهادئ، محتفيا به بطريقة لبقة ورعاية خالصة، وهذا ليس غريبا عن روح الصبان... حيث أذكى فيه حب القراءة الكثيرة التي على أساسها يمكن إنتاج رسم مسؤول...

وبخصوص شخصية مهماز التي ابتكرها فنان الكاريكاتير الرائد العربي الصبان، قال بوعلي إنه يعتبرها شخصية صارخة في كثير من المجالات، ذلك لأنها تناولت عدة قضايا اجتماعية ووطنية ودولية ...

ويختم بوعلي بما يملكه الشاهد للمشهود له (الصبان) من قدرة هذا الأخير على إنتاج رأي سليم مبني على التحليل، والذي لا زلنا نتعلم ونستفيد منه، إنه الوفاء الجميل للفن والوطن ولأفكاره ...داعيا له بمزيد من العطاء...

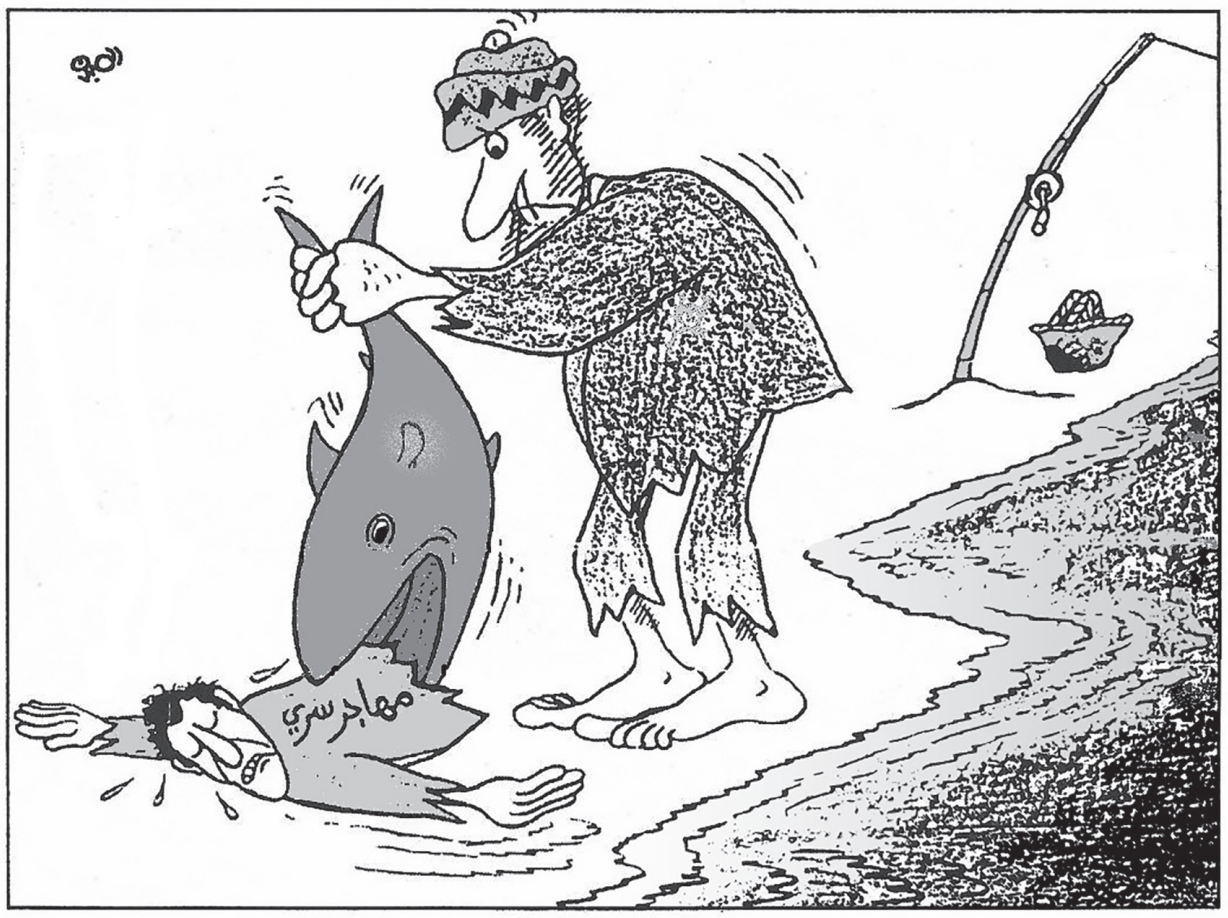

ملف

العربي الصبان الإنسان والفنان

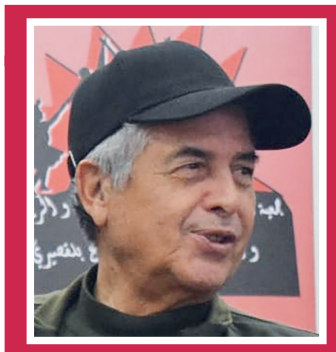

بوشعيب الضبار

كل تكريم للعربي الصبان، هو تكريم له كفنان، وكإنسان عرف بتواضعه، ونبل أخلاقه، وانغماسه في نسيج مجتمعه.

منذ صباه الباكر، انخرط في عشق الخط واللون، هاويا وممارسا لكتابة العناوين والنصوص السردية.

شباب مسقط رأسه، مدينة القنيطرة، التي ولد فيها سنة 1948 يتذكرونه يوم كان أستاذا ومربيا، لا يبخل عليهم بالدعم والتوجيه.

في قاعة العروض الثقافية بثانوية «التقدم»، سنة 1977، اعتاد الطلاب أن يستمعوا إلى الصبان، وهو يقدم لهم، من باب التحفيز والتثقيف، نماذج لرسومات ووجوه معروفة لنوابغ الفكر الإنساني من إنجازه ضمن الدرس الفني.

رواد دور الشباب أيضا، بنفس المدينة، مازالوا يتذكرون تلك الأوراش الفنية الخاصة بالرسم التي كان يؤطرها، تشجيعا للبراعم الفنية.

الرجل يستحق فعلا أكثر من تكريم، استحضارا لما قدمه لفن الكاريكاتير من خدمات لا يمكن بأي حال من الأحوال، التنكر لها.

أعطى الكثير للكاريكاتير. كرس حياته لهذا الفن الساخر، حتى غدا مدرسة تخرجت منها عدة أجيال فنية.

لم يبخل يوما بالتشجيع والنصيحة على أي وافد جديد من الشباب على الكاريكاتير.

من النادر جدا أن يلمع اسم رسام كاريكاتير في المغرب لم يتتلمذ على يديه بطريقة أو بأخرى، إما بصفة مباشرة أو غير مباشرة، ومن ضمن هؤلاء الفنان والإعلامي مبارك أبوعلي، الذي يعترف دوما في أحاديثه للصحافة بفضل الصبان عليه، كأستاذ وموجه له في بداية الدرب الفني .

وكم من رسام كاريكاتير من الجيل الجديد، تبلورت موهبته بنصيحة من الصبان أو توجيه أو إرشاد منه.

مكتبه في صحيفة «العلم» يوم كان يشتغل فيها، يظل مفتوحا في وجه الجميع بدون استثناء.

قدم الصبان عدة إلى الصحافة، فصارت أخذ بأيديها.

ولطالما عبر الرسامون «بورتريهات» رسموها وترسيخا لثقافة الاعتراف.

وتأثيره كرائد رسامي الكاريكاتير في شهيرا هو عماد حجاج، أثناء مشاركته في مهرجان بمدينة أكادير، سنة 1918 يقطع مسافة طويلة كل على نسخة من صحيفة فقط في إحدى المكتبات، الصبان، إعجابا منه وإضافة إلى عماد الصبان بعلاقات وثيقة قوامها المحبة والتقدير المتبادل، مع مشاهير الكاريكاتير العرب.

وحين أصدر الفنان بهجت عثمان، أحد رواد الكاريكاتير في مصر، كتابه ''رفاق سلاح'' عن رسامي الكاريكاتير في العالم، خص العربي الصبان بمساحة خاصة تحدث فيها عن مساره، بعد أن سبق له أن زاره عدة مرات في مكتبه بجريدة «العلم» بمقرها القديم بالرباط

والصبان صديق لجميع المثقفين والفنانين والمبدعين المغاربة بمختلف توجهاتهم الفكرية والإبداعية. ولطالما فتح معهم، في المنتديات والمهرجانات الثقافية، حوارات حول أهمية دور المثقف في خدمة المجتمع، موجها ومرشدا، وناشرا للقيم الانسانية.

ومن موقعه كرسام للكاريكاتير، ساهم الصبان في النقاشات العمومية حول السياسة والثقافة والفكر في المغرب، يتجلى ذلك في كتاباته وتصريحاته للمواقع الاليكترونية والمنابر الإعلامية حول الشؤون العامة، عن الإشكالات المغربية الراهنة، مثل الهوية والانتماء والتنمية الاقتصادية، وحتمية التطور المعرفي والاجتماعي.

ـ والصبان فنان تشكيلي، وخطاط أيضا، وهو أيضا إعلامي وكاتب مقالات، نشرت ضمن الملحق الثقافي ل«العلم» عن «فن الكتابة»، وعن أساليب الخط العربي ومدارسه واتجاهاته عبر التاريخ، داعيا إلى الحفاظ على هذا الإبداع الحضاري حتى لا يموت في صمت...

وبهذا الفهم، صاغ تصاميم أغلفة العديد من الكتب، ووضع رسوماتها، بل وخط صفحاتها الداخلية بريشته، مثل ما فعل مع كتاب الشاعر المغربي عبد اللطيف اللعبي، الموسوم ب «شمس سعيدة».

كما وضع غلاف كتاب «الحرب الحضارية الاولى» للمهدي المنجرة، وكتاب «الاعلام :من الخصاص إلى الكفاءة» لمحمد العربي المساري، وكتاب «شبكات الإكراه بالمغرب»، ليحيى اليحياوي، وكتاب ''سنوات التحرير'' لمحمد الأمين أزروال، و كتاب «ولي الله» لرشيد مشقاقة، وكتاب « الكاريكاتير في المغرب» لإبراهيم الحيسن، وكتاب «أنياب طويلة في وجه المدينة» لمصطفى يعلى، وكتاب عبد الله بنسماعين» أزمة نص، أزمة هوية»، وكتاب «دفاعا عن المسرح المغربي» لعبد القادر البدوي، وكتاب مسرحية ''حمار رغم أنفه»، من تأليف الصديقين محمد بلمو وعبد الإله بنهدار، واللائحة طويلة جدا، ولا يتسع المقام لسردها.

في ديوانه «عيون»، خصه الشاعر المرحوم أحمد السلام البقالي، بقصيدة تحت عنوان «الصبان يصبن أحسن»، وقال إنها عبارة عن « تحية إلى رسام الكاريكاتير المبدع، العربي الصبان، المناضل برسومه البديعة من أجل قضايا أمتنا العربية والإسلامية»، وفق قوله.

ومن أجمل الصور التي تجسد هذا الإحساس، ما جاء في مطلع القصيدة:

العرب من قطر إلى تطوان — رفعوا السلام لريشة الصبان
في كل رسم ومضة من فكره — وخياله المتحرر النوراني
الشيخ والطفل الصغير أمامها — في دهشة مسحورة يقفان
ويكاد يقسم من يراها أنها — من فكره أخذت بلا استئذان
هي قصة ومقالة ورسالة — كتبت بلا حرف ولا عنوان

تنسى كتابات الكبار ورسمه كالعشق يستعصي على النسيان...
إلى آخر القصيدة..

وقصة اللقب العائلي للصبان تعود إلى أن جده كان صانعا لمنتوج الصابون التقليدي، ومن هنا جاءت التسمية.

ثمة حقيقة لا مناص منها، وهي أنه رسام «بورتريه» كاريكاتيري من طراز رفيع، تشهد بذلك مداعباته لوجوه المشاهير بلمسات فنية تتميز بجمالية خاصة.

وما لا يعرفه الكثيرون عن الصبان، أنه ليس صاحب ريشة حادة مثل نصل السكين، بل هو أيضا صاحب ذوق فني مرهف، ومارس العزف على العود في شبابه، ومعجب بالمنجز الموسيقي للملحن الكبير رياض السنباطي.

وهو كاتب وصاحب قلم رشيق وأسلوب في الكتابة، ولعل قدماء قراء ''العلم'' يتذكرون ركنه الشهير ''التنكيت في زمن التبكيت''، الذي كان يتطرق فيه بسخرية لاذعة إلى ما تعج به الحياة اليومية في المغرب من مفارقات سياسية وتناقضات اقتصادية واجتماعية.

إن الكاريكاتير عنده موقف ورسالة، وليس مجرد أداة للتسلية وملء بياض الصفحات، كما يعتقد البعض عن خطأ، وفي هذا السياق يقول «إن الكاريكاتير معناه إعادة قراءة الواقع، قراءة واعية، ساخرة وممنهجة».

من بين صفحات الصحف والمجلات المغربية والعربية، طارت رسوماته لتحلق في الأفاق، متنقلا بها في أنحاء العالم، في معارض للكاريكاتير، فردية وجماعية..

من معرض كريتيل الفرنسية، إلى معرض الكاريكاتير العربي الثالث بدمشق، مرورا بمعرض الكاريكاتير الدولي بتونس، والمهرجان الدولي في موسكو، والمعرض الدولي للكاريكاتير والصحافة في البرازيل، ومعرض المنظمة العربية لحقوق الإنسان في القاهرة، ومعرض فني فردي في مدينة «كازا نلاك» البلغارية، ومعرض الكاريكاتير العربي لاتحاد الصحافيين العرب بليبيا، ومعرض «حريات» بتركيا، وصولا إلى معرض الكاريكاتير العربي في باريس، الذي انتقل أيضا إلى الرباط، سنة 1981.

بالإضافة الى «العلم»، تناثرت رسوماته بسخاء كبير على صفحات المنابر الإعلامية، بمختلف توجهاتها وأطيافها السياسية والثقافية، لم يبخل أبدا بعطائه على أي صحيفة، بغض النظر عن خطها التحريري، إيمانا منه بأهمية حرية التعبير، ودعما لنشر ثقافة حقوق الإنسان.

كانت له أيضا إطلالة يومية على قراء "الأحداث المغربية". وقبلها «النشرة»، و«أنوال» و«8 مارس»، و«الصحيفة» و«القدس العربي» و«الساخر» و«الزمان» و«المنعطف» و«الاتحاد الاشتراكي» و«الميثاق الوطني»، و«الشمال»، ومجلة «الإنسان الجديد».

وكم للصبان من بصمات في المشهد الفني والثقافي، والإشارة هنا إلى بعض التنويعات الفنية، على سبيل المثال، لا الحصر.

في سنة 1980 أنجز المقدمة الفنية أو «الجنيريك» لمسرحية « وشاء القدر»، أثناء تصويرها للتلفزيون، وذلك بتقديمه للممثلين المشاركين فيها بشكل كاريكاتيري، في أول تجربة فنية من نوعها في المغرب.

ولأول مرة أيضا، تشارك رسومات الصبان في عرض فني لمسرحية "افتحوا النوافذ" للفنان عبد الحق الزروالي، المستوحاة من السرديات الساخرة للشاعر عبد الرفيع الجواهري المنشورة في الصحافة سنة 1991.

وبريشته المشاغبة بصم الصبان على المطبوع الفني لمسرحية «طير الليل» للفقيدة ثريا جبران من إخراج فوزي بنسعيد. وكم كانت لوحة الصبان معبرة عن شعور الممثلة الشهيرة، وهي تصرخ بأعلى صوتها في الرسم:»آه ياوطني..آه ياوطني»، وهي التي ذاقت مرارة الاختطاف ذات يوم مشؤوم يتذكره الجميع بكل حسرة واسى..

أبرز المحطات في طريق الصبان كثيرة ومتشعبة، واختصارها ظلم له كصاحب تجربة طويلة، وهذه فقط بعض الإضاءات السريعة، وفق تسلسل زمني يروم مواكبة مراحله الفنية، بنوع من التكثيف والاختصار الشديد:

ـ سنة 1966: أقام أول معرض كاريكاتيري بمدينة القنيطرة

ـ سنة 1978: اسهم إلى جانب الفنانين محمد الفيلالي وحميد البوهالي في تأسيس أشهر جريدة كاريكاتير مغربية شعبية بعنوان «أخبار السوق» ، إضافة إلى «أخبار الفن»، وقبلها صحيفة للرسوم الساخرة بالفرنسية، اسمها «ساتيريكس».

ـ عام 1980: شارك في إنشاء رابطة رسامي الكاريكاتير العرب التي تأسست في دمشق برئاسة الشهيد ناجي العلي ، بحضور كبار رسامي الكاريكاتير العرب أمثال جورج البهجوري وعلي فرزات وغيرهما. وقد تم تكليف الصبان بمهمة العلاقات الداخلية، وكان ذلك أول محفل فني من نوعه يجتمع فيه اساطين الرسم الساخر في الوطن العربي.

ـ سنة 1986: منعت رسوماته من النشر، وبقيت مساحة الكاريكاتير في «العلم» موسومة ب «فصاحة البياض» كنوع من الاحتجاج، بتضامن واسع من المبدعين والفنانين.

ـ سنة 1990: ساهم في المهرجان المغاربي للأشرطة المرسومة والكاريكاتير في مدينة وهران بالجزائر سنة 1990.

ـ سنة 1991: اختارت إذاعة طنجة «مهماز»، الأيقونة المحورية في رسوماته، كشخصية صحافية للعام.

ـ سنة 1991أيضا: شارك في معرض المهرجان المغاربي الثاني للفكاهة من تنظيم الفنان الحسين بنياز بأكادير.

ـ حاصل على عدد من الجوائز الدولية والعربية والوطنية كجائزة «بوزغيبة الدولية للفكاهة»، وجائزة «التواصل الثقافي» للدكتور المهدي المنجرة، مناصفة مع الفنان أحمد

السنوسي «بزيز» عام 1992.

ـ سنة 1999: تم طبع كتاب "كاريكاتير العربي الصبان في القدس العربي" ضمن سلسلة "شراع" بتقديم من عبد الباري عطوان، رئيس تحرير "القدس العربي". وفيه يشيد بانحياز الصبان للقضايا الإنسانية العادلة، وفي مقدمتها قضية فلسطين، التي خصص لها ريشته، وأعطاها حيزا وافرا من عطائه الإبداعي، وشارك في التظاهرات الشعبية المؤيدة للشعب الفلسطيني في شوارع الرباط

ولم يكن غريبا أن يسند اليه المهدي المنجرة مهمة المشاركة في الإنابة عنه في حفل أقامته الشبيبة الاستقلالية، بالرباط، لتقديم جائزة «التواصل الثقافي، شمال جنوب» إلى الفلسطيني جمال الدرة، أب الطفل الفلسطيني الشهيد محمد الدرة، الذي اغتالته القوات الإسرائيلية، يوم 30 سبتمبر عام 2000، في مشهد مؤلم اهتز له العالم بأسره.

وفي نفس السنة، أي 2000 ، وتفاعلا منه مع انتفاضة أطفال الحجارة في فلسطين، أطلق الصبان أسبوعية " المقلاع" ،التي شكلت إضافة جديدة للصحافة الساخرة، وكعادته دائما، ومن باب التحفيز والتشجيع، فتح صفحاتها في وجه الرسامين الشباب، ولكنها توقفت لغياب التمويل المادي وانعدام الإعلانات.

ومن بين مظاهر التقدير التى حظى بها الصبان، تقديم «جماعة ظفار للفن الساخر» بسلطنة عمان معرضها الثالث لسنة 2003، هدية إليه، وكذلك تكريمه من طرف نادي الصحافة بالقنيطرة سنة 2006 إضافة إلى تكريمه في «ليلة الرواد» المنظمة من طرف الشبيبة الاستقلالية، إلى جانب الكاتب إدريس الخوري بالرباط، سنة 2010.

وتوالت سلسلة التكريمات في مهرجان بني عمار سنة 2011، وملتقى شفشاون للكاريكاتير والاعلام سنة 2012، ومهرجان افريقيا الدولي للكاريكاتير باكادير سنة 2018، بحضور رائد الكاريكاتير المرحوم ابراهيم لمهادي .

ـ سنة 2009: تم نشر كتاب " العربي الصبان الكاريكاتيريست وفنان الرسم الساخر" لعبد الكريم غريب ضمن منشورات "عالم التربية".

ـ يوم 25 يناير 2020:جرى تنصيبه من طرف الجمعية المغربية لرسامي الكاريكاتير، في جمعها العام العادي بطنجة رئيسا شرفيا لها، تقديرا لريادته في فن الكاريكاتير، وذلك باقتراح من رئيسها الفنان عبد الغني الدهدوه..

سنة 2020: اختارت قناة «الجزيرة» القطرية، «مهماز» أيقونة وعنوانا لبرنامج خاص قدمته سنة 2020عن الكاريكاتير المغربي، بمساهمة ألمع نجومه : عبد الغني الدهدوه وخالد الشرادي وريهام الهور.

وأستحضارا لتجربة الصبان الفنية، وتقييما لها، نظمت فرقة مسرح سيدي يحيى الغرب يوم 16 مارس 2023 لقاء معه، إلى جانب معرض ضم باقة من أعماله في الكاريكاتير.

وبدورها، هاهي جمعية النجم الأحمر للتربية والثقافة بمدينة بلقصيري، مشكورة، تحتفي به، شهر فبراير 2024 ضمن ملتقى ناجي العلي الوطني للكاريكاتير، بعد أن منحته شهادة تقدير ومحبة في دورة رفيق دربه المرحوم حمودة، شهر فبراير سنة 2023.

وراء هذا المسار الفني المتميز، مثقف شمولي وصاحب عقل موسوعي، وفكر مستنير، تناولته بالدرس رسائل وأبحاث جامعية في الكليات، وفي المعهد العالي للصحافة بالرباط وغيره.

إنه الصبان الذي يمكنه أن يتحدث لوسائل الإعلام بعمق عن أي قضية سياسية أو ثقافية أو اجتماعية، وهذا نابع من كونه متابع جيد للأحداث، وما يموج به العالم من تيارات متلاطمة، لا تفوته صغيرة أو كبيرة.

التعليق عنده حاضرا دائما، وكذلك الفكرة الساخرة.

بسرعة البديهة يستطيع استنبات عشرات الأفكار الكاريكاتيرية، مع تصوره لكيفية تنفيذها على الورق لتصبح لوحة نابضة بالسخرية، واستخلاص المعنى.

ومبتكر شخصية «مهماز» إنسان ودود ولطيف يتسم بخفة روحه ودمه، يستطيع أن يحول جلسة مع أصدقائه في المقهى إلى حلقة للنقاش الفكري، وفضاء للتندر والتفكه أيضا.

هذا الفنان شاهد على عصره بالفعل، إذ تشكل رسوماته مرجعية مهمة لكل من يرغب، بعد سنين، في دراسة تحولات المشهد السياسي والاقتصادي والثقافي والاجتماعي، وهو من الساعين إلى تكريس حرية الرأي والحق في الاختلاف.

إنه يرصد الواقع بعين ذكية، وريشة مشاغبة، ورؤية ساخرة، داعيا إلى معالجة أعطاب المجتمع.

ولا يمكن ذكر الكاريكاتير في المغرب دون أن يكون مقرونا باسمه، فهو واحد من روّاده الذين أعطوا لهذا الفن زخمه وقوته.

ومنجزه الفني يحتفظ براهنيته وكأنه وليد اللحظة، ولم يجف حبر مداده بعد.

الحديث عن الصبان يطول..ويطول..وربما تكون بعض المعطيات قد سقطت مني سهوا، أثناء تصفحي لأرشيفه الفني، وهو مخزون وزاخر بالكثير من الإشراقات الإبداعية.

العربي الصبان

بنيونس عميروش / تشكيلي وناقد

يعتبر الإيطالي موسيني **Mosini** أول من استعمل عبارة «كاريكاتير» (بالفرنسية: **Caricature**) في منتصف القرن السابع عشر (**1646**)، وتنحدر من كلمة «**Caricare**» التي تعني «المبالغة وتحميل الشيء ما لا يُطيق». بينما نشرها النحات ورسام الكاريكاتير الإيطالي جيان لورينزو برنيني **Gian Lorenzo Bernini** بعد منتصف القرن السابع عشر في المجتمع الفرنسي أثناء رحلته إلى فرنسا عام **1665**.

ينتمي الكاريكاتير **Caricature** إلى حقل الفنون التشكيلية، فيما يُعَد أحد الأجناس التواصلية والصحفية المعتمدة في استقطاب والمهتمين، بناء على إمكانات الكاريكاتير في توظيف أقصى درجات السخرية والفكاهة، وعلى قدراته النقدية، المختزلة والصريحة، بحيث يمكن أن يمرر المواقف والأفكار والأحكام والتصورات بشكل نافذ، قد يفوق أدق المقالات والتحقيقات والتقارير الموصولة بالأحداث السياسة والأوضاع الاجتماعية وغيرها. معه، يتشكل الخطاب عبر الرسم **Dessin** (الذي يعتمد عنصر الخط **La ligne**) كأداة أساسية في تكوين «الموضوع»، ولذلك يقتضي مهارة الرسم وكفايات التحويل والتحوير والتحريف والتكبير والتصغير والمبالغة والتشويه والمسخ، بقدر ما يتطلب المتابعة الحثيثة للوقائع والمتغيرات، إضافة إلى الموهبة والذكاء في الإنجاز، بحيث يظل الكاريكاتير الذي يكتفي بالرسم فقط، دون الاستعانة بالنص المكتوب، هو النموذج الناجح والأكثر نجاعة.

هناك طبعا قواعد عامة في ممارسة الكاريكاتير، أساسها مهارة الرسم التمثيلي- التشخيصي الذي يخضع لمجمل التحويلات والتوجيهات والمعارج البصرية، وفي خضم الإنجاز والمداومة والمراس الواعي، يتشكل الأسلوب، كما نعاينه في العديد من التجارب الرائدة.

من أبرز الأسماء التي تشكل الريادة في فن الكاريكاتير بالمغرب، صديقنا الفنان العربي الصبان الذي نلتف حول مساره اليوم، مساره المديد الذي حافظ على بريقة رفقة مُجايليه الرواد من أمثال العربي بلقاضي وإبراهيم لمهادي وحميد بوهالي. ضمن هؤلاء، وبعيدا على مبدأ المفاضلة، تبرز بصمة العربي الصبان المحفورة في ذاكرة النخبة العريضة من المهتمين والمتتبعين، وفق خمسة معطيات على الأقل:

أولا، عَمَل العربي الصبان، منذ البداية، على السَّيْر قدما في ترسيخ ممارسة تعبيرية، نبيهة ويقظة، قائمة على الوعي بقيمة الكاركاتير الإبداعية، والتواصلية، وما يتضمنه من خلفية إدراكية وتوعوية داخل إطار خبرات ومعارف الفنون الفضائية وما يصاحبها من ثقافة فنية، يتخذ فيها الكاريكاتير صدارة الاستيعاب، من خلال صبْغته التبسيطية التي تَجعله قريبا من دعامات التوضيح والديداكتيك والإبانة في إطار توليفات، تقدم نفسها كأنساق بصرية بسيطة في المظهر وعميقة في الجوهر.

ثانيا، ديمومة الحضور منذ بداية ستينيات القرن الفارط، بحيث تنطبع رسومات العربي الصبان باستمرار في العديد من المنابر، جريدة «**Satirix**»، جريدة «أخبار السوق» التي شرعت في الصدور سنة **1978**، جريدة «التقشاب»، جريدة «المقلاع». غير أن حضوره الملفت في جريدة «العلم» المقروءة، كان له وقعه الخاص في الذيوع والانتشار، باعتبار الصحف السياسية القليلة، ظلت جديرة باستقطاب مختلف المستجدات السياسية والثقافية، لتحققت الانتشار الواسع كوسيط للتداول الذي يشيع الأفكار والمواقف والأسماء. وهنا وجب استحضار إكراهات الممارسة اليومية، والتواجد اليومي، والاقتناص اليومي؛ أي اقتناص الموضوع والفكرة والحافز اليومي مع ضرورة اتخاذ المواقف الصريحة في الكثير من الأحيان، والأمر يضعنا أمام معنى الإبداع المقيَّد بالحد الزمني الذي ينتهي ويتوقف مع عملية التجميع وتصفيف المواد المشرفة على الطبع الفوري. لعلها الوضعية الكفيلة بتقريبنا من مفهوم الالتزام لدى الفنان، وطبيعة وفائه للتَّعاقُد الذي أبْرَمَه مع جمهور القراء.

ثالثا، جاذبية الرسوم من خلال بطلها الذي صنعه واسْتَلَّه العربي الصبان من قاع المجتمع، والذي أسماه «المِهْماز»، والمِهْماز تعني قطعة الحديد التي تكون في عقب الراكب، يَنخس بها الفرس (أو غيره) حتى يسرع في المشي، وبلغتنا الدارجة يمكن وضعها في مقابل «المِنْغاز» كأداة وكفعل لطالما مَسَّ الهيئات والمؤسسات والشخصيات من المسؤولين المعنيين برسائل «المهماز» الموسوم بطاقيته الشعبية ذات الزخرفة الخطية المسنَّنة التي تتجاوب مع ضفائر قفة الدوم الفارغة المشدودة إلى يده باستمرار. لم يدخر مهماز العربي الصبان جهدا في استلهام الوجود الإنساني للشخصية المغربية وأوضاعها وقتئذ، وفي ترجمة مشاغل الشعب وتساؤلاته ومطالبه، مانحا لمحيطه ومرافقيه من الشخوص في كل رَسْمَة، وفي كل حدث، وفي كل سياق محلي أو عربي جديد، إثارة مختلف المواضيع الآنية الموصولة بقضايا الشغل والتعليم والصحة والتنمية والفساد والمرأة والحرية، وكل ما يتصل بظروف الحياة والعيْش وسواه، فيما يستفز السياسي والاقتصادي والحقوقي والفقيه والمثقف بعامة. من ثمة، وعلى امتداد السنوات الطوال، واضب «المهماز»، قرين الفنان المُضْمَر والصَّريح، على إخلاصه في تكييف صوت الرأي العام والجَهْر به دون هوادة.

رابعا: يتطلب الاشتغال في الكاريكاتير الريشة المحترفة والخيال المبدع في الإيصال والإقْلال وجَذْب الانتباه بوعي وبدون وعي، بقدر ما يتطلب كفايات التواصل والإقناع، بحكم طبيعة العمل وسط فريق الجَريدة من المؤوسين والرؤساء الذين يرسمون بدورهم خط تحرير الجريدة الذي يحدد خط الكاريكاتير، بينما خط الكاريكاتير مُتحول وزِئْبقي، لا يرسو على حال. فكيف للعربي الصبان أن يُدَوْزِن خَطَّه وفق المطلوب، دون أن يتنازل عن أفكاره ومواقفه. فمَسألة الدفاع عن إجازة نشر الرسم، تعيدنا للوقوف عند شخصية الرسام، كفاعل مؤثر في الوسط المهني، كما في سير الجريدة برمتها، بحيث لا يتسنى للفنان المرافعة حول عمله، دون أن يكون مالكا لخلفية ثقافية غنية ورصينة، تصون تصوراته ودفوعاته حول ما يُنجز. كذلك كان العربي الصبان، ويكفي التدليل برُقَيّ أحاديثه ومناقشاته، وما قرأنا له من كتابات، كشواهد معرفية وجدلية، تُعَضِّد ما يحمله من هواجس المثقف الواعي الحاذِق.

خامسا: صناعة الأسلوب لدى العربي الصبان تقوم على مبادئ تجريبية دأب على تكييفها وتجويدها على امتداد أعوام، لتتخذ صفة الإمضاء في حد ذاتها، بحث لا تُحَمِّلُك رسوم العربي الصبان على مُعايَنَة خانة التوقيع الذي أصبح مُضمرا في خطه السميك الذي لا يُطيق التدرجات **Les nuances**. إنه الخط الواثق الذي يتولد من إيقاع الروح والذات بسلاسة الهياكل (بنية الرسم) التي تتوزع بين التراكيب المفتوحة حين لا يتعدى الأمر شخصَيْن. وحلزونية، قد تحيلنا على بنية تراكيب المُنْمَنَمَة **La miniature** العربية في بعض الأحيان، حين يتعلق الأمر بالجُموع **La foule**، حيث تنبعث الشخوص مضغوطة، خاضعة لقانون الجاذبية، كأنها تعلن ما تراكم عليها من ثقل الحياة وضنك العيش. غير أن الرسوم تظل مطبوعة بالحركية، وباختزالية بادية، تقوم على حسّ بديع في توزيع الفارغ والمملوء، السَّالب والموجَب، وفق ما يمليه السياق والمَوضوع، والمزاج أيضا؛ مزاج العربي الصبان الذي يعكس نموذج الفنان المغربي والعربي الذي ألَف لنفسه صورة المبدع الأنيق، القُدْوَة المنيعة، الرّاصد الجريء، صاحب العين القاطعَة والذهن الرّاشِد، الحاضر الباقي على الدوام.

لك كبير محبتي وتقديري العزيز الفنان المائز العربي الصبان.

القنيطرة، فبراير/ شباط 2024

دَوْرِيَّة الخط الصّارِخ

كاريكاتير الفنان المغربي العربي الصبان